وكالة القاهرة للنشر

فتحى سلامة

هؤلاء علمونى الحب

مجموعة قصصية

«هؤلاء علموني الحب»

قريتنا تحتضن فرع النيل المتجه إلى دمياط، تتماسك البيوت الطينية مكونة مربعات سمراء، تتخللها شوارع ضيقة، تتلوى الشوارع وتكثر بها المنحنيات.

وداخل البيوت يسكن أهلى، فى الشتاء يغطى البرسيم بخضرته اليانعة حقول القرية، كما تغطى عيدانه المقطوعة المتناثرة أرض الشوارع وصحن الدار، وينام أهلى فى «القاعة» حيث يتربع الفرن الذى نستخدمه فى صناعة العيش، والفرن يبعث الدفء فى الغرفة التى نطلق عليها «القاعة»، وفى هذه القاعة يحلو السمر فى ليالى الشتاء نلتف حول جدنا يحكى لنا الحكايات ويصنع لنفسه القهوة، وحرارة الفرن وحكايات جدى تجعل ليالى الشتاء جميلة محببة إلينا، ولكن جدتى لاتدع لنا فرصة النوم بعد حكايات جدى، إنها دائما، وفى كل ليلة تصدر لنا أمراً واحداً، نخرج فور صدوره من القاعة فى حزن، تلفح وجوهنا برودة صحن الدار المكشوف، نتأفف، ولكننا نواصل تنفيذ الأمر، يتسلل كل منا وراء مجموعة من الدجاج والبط يسوقها وهى تتصايح حتى يدخلها إلى عشها فى جانب صحن الدار، فإذا اكتملت جميعها داخل العشة نغلقها بسرعة؛ لنعود إلى القاعة، فنجد جدنا استسلم للنوم، نتمدد بجواره وننام حتى الصباح.

وفى كل ليلة نفعل هذا، وفى كل ليلة نشعر بالرغبة فى العصيان، حتى جاءت ليلة أصررنا على الرفض، لن نذهب

لنضع الدجاج والبط فى العشة، ليلتها قال جدى: حسناً، اخرجوا أنتم أيضا وناموا فى البرد فى صحن الدار.

وعندما عارضناه، قال: أتخشون على أنفسكم من البرد ولاتخشون على حيوانات لاتقدر على النطق وهى تشعر مثلكم بالبرد؟!.

شعرنا بالخجل وأسرعنا فخرجنا إلى صحن الدار ندفع الدجاج والبط إلى أعشاشه حتى تنعم بالدفء مثلنا فهى أيضا تشعر بالبرد وإن لم تكن تنطق بالشكوى.

(٢)

دفعتنى عمتى بعيدا عن كومة الأطفال الذين تحلقوا حول «شخلول»، وهو رجل طويل وعريض، يرتدى الكثير من قطع الأجولة الفارغة المصنوعة من التيل، وقد علق عددا من الشخاليل والأجراس الصغيرة، وأمسك بيمينه عصاه هى الأخرى معلق عليها مجموعة من الشخاليل والأجراس، ودائما يحمل فى مخلاته حبات النعناع المسكر والحلوى الصغيرة ويوزعها على الأطفال والأولاد الذين يتحلقون به كلما مر بشارعنا، لايكف عن إعطاء قطع الحلوى وحبات النعناع لمن تحلق به من الأولاد صغارا وكبارا، وهم لايكفون عن مشاكسته وضربه أحيانا بالحجارة، وأحيانا يقذفونه بالسباب المجرح، وهو لايرد

ضرباتهم ولايحول دون مشاكسته، بل أحيانا يرفع عقيرته بنداء ممدود يكرره ثلاث «مدد.... مدد».

وذات مرة وقف فى ساحة القرية وقال بصوت جهير وثقة زائدة «مين يقدر يقول تلت التلاتة كام» ولاأدرى وقتها لما سكت الناس جميعا، وودت أن أنطق بالإجابة، كنت تلميذا بالمدرسة، وأعرف الإجابة، ولكن سكوت الناس، وقسوة قسمات وجهه وهو يلقى السؤال جعلتنى أحجم عن الإجابة.. ولما لم يرد عليه أحد، كما هى العادة، مضى إلى جسر البحر حيث يرقد عليه كلما أحس بالتعب، وعندما دفعتنى عمتى بعيدا عن كومة الأولاد، بكيت لأننى أود المشاركة فى التجمهر حول «شخلول» الذى يبدو أنه لايفكر مثلنا، فالأولاد يسبونه وهو يعطيهم قطع الحلوى، يرشقونه بالحجارة وهو يناولهم قطع النعناع المسكر، الناس لاتقيم له وزنا ولايقدمون له إلا الإهانات تخوفا منه، واشمئزازاً من رائحته ورائحة مايرتديه، أخذتنى عمتى إلى الدار، أدخلتنى الحمام، شعرت بالماء الساخن وخشونة يدها وهى تغسل جسدى بقوة وهى تتمتم ببعض الكلمات التى لم أفهم لها معنى،...

ارتديت ملابس نظيفة وأعطتنى بعض النقود لكى اشترى بها ما أشاء من حلوى، خرجت إلى الشارع لم أجد أحدا من الأولاد مشيت حتى الجسر وجدته هناك، شخلول بهلاهيله المتسخة يجلس على حافة الجسر وقد أسند

عصاه على كومة من التراب. ويداه تمسكا بقط صغير يطعمه فتات الخبز من فمه، والقط يلعق شفتى شخلول فى تلذذ، حتى شبع، انحنى شخلول إلى قط آخر وأخذ يفعل له مافعل فى القط الآخر، وأنا أنظر وهو لايشعر بوجودى، رقد القط بجوار قدم شخلول الذى أخرج المخلاه وقلبها فتناثرت منها قطع الخبز وحبات النعناع والحلوى، طوى المخلاه وجعل منها وسادة وضع رأسه عليها ورقد، بعد برهة وجيزة ظهرت السيدة لايبدو من وجهها شيئا، فنظرت إلى شخلول الراقد على مخلاته ووضعت طبقا به طعام وبعض الأرغفة وبعضا من النقود الفضية، ثم اعتدلت واستدارت فوجدتنى قبالتها، قالت: - يجب أن تدعه يرقد فى سلام ولاتأخذ شيئا مما أعطاه الله له.

هززت رأسى خفيفا، قالت وهى تنظر فى عينى:

- الناس أسرار، والله وحده المطلع.

قلت فى تلعثم:

- لن أخذ شيئا.. بل سأعطيه مامعى من نقود . ووضعت ما أعطته لى عمتى من نقود بجوار النقود الفضية، وقلت: - لماذا هو كذلك؟.

قالت: - يعلم هذا علام الغيوب.

قلت: - يبدو أنك تعرفينه.

قالت: - إذا أعطيت لا تسأل.

قلت: ـ لقد أحببته.

.. ونظرت إليه، كان يبتسم وهو نائم، لم أر ملابسه المتسخة، بل رأيتنى أحبه.

(٣)

كنت متزوجا منذ مايقرب من عشرة أعوام، ولكن لم تكن تلك السنوات العشر قد قربتنى من زوجتى، لم أكن أعرفها حق المعرفة، كنت دوما أكرر بينى وبين نفسى أنا لا أحبها، إنها بليدة الشعور، باردة الإحساس، تبدو دائما شرسة، ابتعدت عنها، كنت أسافر كثيرا وأتغيب كثيرا عن البيت، وأفرح عندما يكلفوننى بالذهاب إلى المهام البعيدة، وكنت بالطبع على علاقة حب بإحدى الفتيات، لم تكن جميلة بشكل باهر، إنما كانت لها جاذبية لايمكن إغفالها أو التخلص منها، كنا نتقابل يوميا نأكل معا، نسافر معا، نقضى معظم الأيام معا، بيننا أشياء كثيرة مشتركة، لم أحاول الاقتراب منها إلا فى حدود الصداقة الودودة، والعلاقة العفيفة وحافظ هذا المسلك الحميد على استمرار علاقتنا معا مدة طويلة، وكانت الصراحة والصدق والشفافية هى دستور تلك العلاقة، وأعترف أننى كنت سعيدا معها، وأتمنى أن أقضى العمر كله بجوارها، وأسعد

عندمـا يأتى الصيف ونسافر معـا ضمن مجموعة من الشبـاب إلى أحد الشواطىء لنقضى أيامـا عديدة بجوار البحر وفى حياة برية منطلقة، نأكل مع المجموعة ونسبح فى الماء طوال النهار.

أحيانا كنت أجلس خلفهـا وأنا أمشط شعرها الطويل الذى كانت تفتخر به كثيرا وتتباهى بـه، ومع هذا كانت تتصرف وكأنها شاب مثل بقية الشباب فى جماعتنا، بل كانت أحيـانا أشجع كثيرا منهم، كنت فخورا بهـا، تتكوم بالليل بجوارى حتى أذهب فى النوم.

فى الصباح أجدها وقد أعدت الطعام وأيقظت الجميع، وعندما نعود.. كنا نفعل كل شىء بحماس، نلعب التنس بحماس، نتسابق، نأكل، نزور كل مكان ممكن مشاهدته وفى أحد الأيام لم أجدها، حاولت الاتصال بها، بحثت عنها فى كل مكان، فى البيت أنكروا وجودها وهم كانوا يعلمون بصداقتنا، انتظرت حتى تأتى كنت أذهب إلى كل مكان ذهبنا إليه سويا، أجلس فى النادى فى نفس المكان الذى كنا نجلس فيه معـا، أتحاور مع كل من كان يعرفنا، يسألوننى أين هى، يسألنى حارس حديقة الأسماك، يسألوننى فى كل مكان عنها، لا إجابة عندى..

ذات ليلة جلست فى غرفتى بالمنزل، انسال الدمع من عينى بدون إرادتى، أطرقت وأنا أبكى، جاءت زوجتى دون أن أشعر وضعت يدها حول رأسى وقالت: - فى الغد ستجد

خيرا منها، فلا تبك، نظرت إليها واستدرت نحوها، كان الدمع لايزال ينسال من عينى، قلت: - أكنت تعرفين؟، أومأت برأسها، حاولت أن أتكلم، صدتنى وقالت: - فى الحب لامكان للإعتذار، فكرت كثيراً فيما قالته وشعرت أن حبى لزوجتى قد اكتشفته تواً.

«اللافتة»

عندما ذهب الرجل إلى المنزل الذى يقع فى شمال المدينة، وجد اللافتة التى كان قد علقها فى الصباح قد اختفت، ووقف ينظر فى دهشة إلى الفراغ الذى تركته، وراح يتذكر فى إصرار غريب كل ماحدث خلال عمل اللافتة وتثبيتها، ثم تذكر ـ أيضاً ـ أنه شعر بالسعادة والزهو عندما نظر إلى اسمه مكتوباً بالحروف السوداء الغليظة على اللون الأبيض، كما تذكر أيضاً، تلك اللحظات التى أحس خلالها بالهوان عندما لاحظ رداءة الخط الذى كتب به حرف «العين»، وقرر بعدها معالجة الأمر بوضع رسم كوفى فوق الحرف، ولكنه الآن للأسف الشديد ـ لايجد اللافتة بحروفها الغليظة، لقد اختفت تماماً، دار حول مكانها، حاول أن يجد علامة ما، أو مجرد أثر يدل على الطريقة التى اختفت بها، فلم يجد، وعندما اقترب منه حارس المنزل، سأله عنها ولكن الحارس مط شفتيه، وأصدر صوتا مضغوما لم يفهم منه شيئا وإن كان قد فهم ما يعنيه الحارس، صاح فى دهشة: ـ كيف؟

هز الحارس رأسه ومضى، لم يكن أمامه إلا أن يواصل سيره إلى داخل المنزل، ويصعد مجموعة الدرجات القليلة التى توصله إلى المصعد، لاحظ خلال صعوده وجود علبة كبيرة موضوعة فى أعلى الدرجات، واكتشف أيضاً أن بعض الدرجات بها خدوش قليلة وصعد إلى رأسه خاطر أسعده، وجعله يتراجع فوراً ويهبط تلك الدرجات التى صعدها، لقد اكتشف الآن سر عدم وجود اللافتة.. إن هذا المنزل

ليس منزله، لقد أخطأ المنزل وبالتالى فإن اللافتة لم تقع، بل هى موجودة، هو الذى أخطأ، وهرول مسرعا إلى الشارع، سعيداً كان باكتشافه هذا، سار عدة خطوات حتى اقترب من المنزل المجاور، لاحظ على الفور أنه لايشبه المنزل الذى يسكنه، بل لايوجد أى نوع من التقارب بينهما، وهناك العديد من الفروق بينهما فى اللون وعدد الأدوار، بل والسور الخارجى، فالمنزل الذى يسكنه يتميز بسور خارجى . اللافتة غير موجودة تراجع فى خوف، أحس أنه ضائع، مكشوف لكل أنواع الأخطار بل أحس بالرجفة تأخذ بعقله وتهزه هزاً، وعندما نظر إلى السماء ثم تلفت حوله، كاد يصيح من السعادة والفرح.. لقد أخطأ فى الشارع وليس فى المنزل فقط، وبالتالى فإن المنزل موجود واللافتة أيضا، لايمكن للافتة أن تطير مع الريح حتى لو كانت ريحا ضارية ولايمكن أيضاً أن يقتلعها أحد بسهولة، لقد ثبتها جيدا، وكلفه هذا أسبوعا من العمل الشاق، وراق له العمل حتى كان يقضى فيه معظم أوقات النهار، وهرول مسرعاً وإحساس بالسعادة يدفعه.

وقف فى نهاية الشارع، تذكر سيارته التى كان قد أوقفها أمام المنزل الأول، قرر أن يعود إليها ولكنه أرجأ ذلك إلى حين، فالشارع التالى هو بالتأكيد الشارع الذى يسكن فيه وهو يذكر أن على ناصية الشارع محلا للعب الأطفال والحلوى، وأنه تعامل مع هذا المحل من قبل وعندما لاحظ عدم وجود محل اللعب، لم يهتم به، ودار حول الناصية فى

ثقة، فقد تعود أن يصل إلى منزله دون تفكير، بل كثيرا ماقاد سيارته حتى المنزل وهو مستغرق فى تفكير عميق حول بعض المشاكل، وقد تعود هذا العمل الشاق الذى يستغرقه طوال اليوم، وكثرة الصعوبات التى يقابلها تجعله منهكا فى نهاية اليوم.

قرر أن يترك قدميه تقودانه إلى المنزل كما تعود كل مساء، مضى وهو يفكر فى.. فى ماذا؟ لم يعد يتذكر عمله، بل لم يعد قادرا على أن يستعيد مافعله منذ قليل، توقف عن السير، ثم دار حول نفسه، راح يدقق النظر فيما حوله من أشياء وبشر، أحس برعدة البرد وهاجمه إعياء ثقيل، جلس على الطوار، ردد بينه وبين نفسه، إنه بخير، مجرد شعور بالإرهاق، سوف يزول عندما يجلس بل عليه أن يتمدد، واحس بلسعة برودة الأرض عندما رقد، ولكنه استسلم للراحة التى شعر بها أيضا عندما ترك جسده يرقد دون مقاومة، تطلع إلى السماء وبهره منظر النجوم وهى تتجمع فى مجموعات غير متناسقة، وراح يستنشق الهواء البارد القادم من هذه النجوم، تحسس جيبه وتذكر رغبته فى شرب الشاى الساخن، هذا أول عمل يقوم به عندما يصل إلى منزله؛ ولهذا عليه أن ينهض رغم هذا الإحساس الرائع بالمتعة، وقف... سار عدة خطوات فى ثقة ثم توقف وقد قرر أن يتغلب على تلك الحالة التى تسيطر عليه، قرر أن يتذكر كل شىء، شعر بالألم فى ظهره وأسفل بطنه، ولكنه طوح بيده اليمنى فى حركة رشيقة وقفز فى

الهواء عدة قفزات، بعدها أحس أنه هو، عليه الآن أن يعود إلى المنزل ويأخذ دشاً دافئاً، هكذا تعود كل مساء، عاد يسير وهو محافظ على دفع قدميه فى ثبات فى خط مستقيم، أسعده أن يراقب عدد البلاطات التى يقطعها فى كل خطوة، ثم راح يراقب اتساع خطوته خطوة بعد أخرى، حتى أمكنه أن يحسب المسافة التى يقطعها فى كل دقيقة، أحس بأن عقله قد عاد إلى توهجه وأنه الآن فى حالة عقلية نشطة.

مضى عليه الآن ساعة، قطع خلالها مسافة تزيد على مساحة عشرين ألف بلاطة، تصور لو أنه ظل سائرا هكذا بنفس هذا المعدل ولمدة مائة ساعة، فإنه سوف يتخطى ملايين البلاطات، قرر أن يفعلها، ومضى فى حماس وهو يتخيل السعادة التى سوف يحس بها عندما يتخطى كل تلك البلاطات.

«ثلاثة رءوس»

كان الرجل يستعد للاشتراك بمحطة البنزين التى يملكها فى مسابقة محطات الوقود التى تنظمها وزارة البترول، ومحطة هذا الرجل الموسر تعد من المحطات الفائزة دوما فى المسابقة السنوية، إنه يعتنى بنظافتها وتنسيقها ويضيف كل عام إليها المزيد من الخدمات التى تريح المترددين على المحطة، كل شىء فى المحطة منسق جميل نظيف، وعماله يراعون ارتداء الملابس الملائمة ويتعاملون مع الزبائن، بكل ترحيب، فى هذا العام أضاف خدمة خاصة للكلاب المصاحبة للزبائن، فقد لاحظ حيرة صاحب السيارة أو قائدها فى الاعتناء بالكلب الذى لا يريد أن يقف ساكنا أثناء تزويد السيارة بالوقود.

ولاحظ الرجل ذلك خلال عملية تزويد السيارة أو خدمتها، فخصص حجرة لها باب من السلك المتين ووضع بداخلها طعام وماء وبعض الرمل، بل إنه قسم الحجرة إلى عدة أركان حتى إذا كان هناك أكثر من زبون معه كلبه يضعه فى قسم منها، ومنذ أن أنشأ جلال المواردى صاحب محطة البترول فى ميدان الساحة الخضراء، قسم رعاية الكلاب، وحاز إعجاب كل الناس سواء من معهم كلاب فى سياراتهم أو من لايحملون مثل هذا الترف الحيوانى، بل تعدى الإعجاب إلى المارة وسكان حى إمبابة، فجميعهم اعتبروا إنشاء هذا القسم دلالة على رقى ورفاهية حيهم المعروف بالشعبية وأيضا بالمنازل العشوائية، وتعود سكان ميدان المساحة الخضراء على وقوف السيارات التى تحمل

الراغبين في الفرجة على هذا القسم.. ومع هذ لم يحظى القسم بدخول ضيوف من الكلاب، إلا أنه عندما كان الحاج جلال الماوردى يتأهب للمعاينة اليومية لنظام ونظافة المحطة وأركانها وأقسامها اقتحمت سيارة فخمة من النوع العالمى، وانتبه عمال الحاج جلال الماوردى إلى السيارة التى تقودها سيدة على جانب كبير من الجمال وإن لم تكن نموذجا للجمال الانثوى الأخاذ فإن السيارة تحمل بداخلها كلب أسود لا يشوب لونه الأسود شائبة، رفيع الأذن بشكل لافت مستقيم الجسد، طويل الساقين الخلفيتين، يزم فمه ويصدر فحيحا كفحيح الأفاعى، وعيناه الحمروان ينظران إلى الأمام نظرة حادة تخيف أشجع الرجال.

تقدم العامل المختص بقسم رعاية الكلاب وهو متأهب لجميع الاحتمالات ومعه الأدوات التى تعاونه فى أداء مهمته دون إحداث إصابات فى الكلب أو فى العامل، ولكنه لم يستطع الإمساك بالكلب الذى أخذ يفتح فمه ويزوم فى شراسة، تردد العامل بينما كان الحاج جلال الماوردى يتأمل مايحدث متعجبا بالكلب الأسود إعجابا استولى عليه، اقترب الحاج جلال من السيدة الجميلة التى تقود السيارة وأبدى إعجابه بالسيارة ثم بالكلب فلما ابتسمت السيدة وطوحت يدها فى دلال، أغرى ذلك الحاج بأن يعرض عليها شراء الكلب مهما كان ثمنه، ولكن الحسناء الجميلة رفضت بشدة بيع الكلب معلنة أنها حصلت عليه بعد طول بحث؛ لأنه من فصيلة نادرة وأنها اشترته من صاحبه

البلجيكى بعدة آلاف من الجنيهات وغير مستعدة للتفريط فيه مهما كان الثمن المعروض.. قالت هذا وغادرت بسيارتها الفارهة محطة الحاج جلال المواردى وهو يخبط يدا بيد معلنا أن العالم على وشك النهاية لأن هذا الكلب الذى لايساوى عدة آلاف من الجنيهات لايساوى فى نظره أكثر من عدة مئات على أكثر تقدير، وتحلق حوله عماله يبدون إعجابهم بجمال صاحبة السيارة وبالكلب الأسود ذو العيون الحادة، وإن اختلفوا حول لون تلك العيون.

وفازت محطة الحاج جلال المواردى بالمرتبة الأولى، وأقام بهذه المناسبة حفل كبير دعى إليه السيد المحافظ ونوابه وأيضا رؤساء الشرطة بمختلف الرتب ولم ينس أن يدعو مجموعة من حى إمبابة وخاصة سكان ميدان الساحة الخضراء وكان من بينهم الشاعر الساخر الملقب بأبى أسامة الذى انفرد وحده بإلقاء قصيدة طويلة فى جمال المحطة ورائحة البترول التى كان لها مفعول السحر فى طرد الناموس واللصوص فالمحطة تعمل ليلاً ونهاراً وتضىء الميدان بأنوارها الساطعة دوما وأيضا تملأ الميدان بالموسيقى والأغانى الصادرة من مكبر الصوت الذى يتربع فوق سارية فى وسط المحطة، وتناول المدعون الشربات وأكلوا بعض الحلويات، ولما انفرد الحاج جلال بالسيد المحافظ أبدى رغبته فى تجديد الترخيص له باستخدام الأرصفة المحيطة بالمحطة؛ لأنه ينوى استيراد نباتات زينة جديدة من هولندا ووضعها على الأرصفة لتزين الميدان

وأشار المحافظ إلى أحد مرافقيه بعمل اللازم لتحقيق رغبة الحاج جلال الماوردى الذى سلم السيد المحافظ درعاً فضياً عليه شعار المحافظة معانقا لشعار وزارة البترول، وعندما عاد الحاج إلى منزله بنفس الحى أمر بتوزيع اللحم الذى تبرع به لأهل حارته، أما أسرته الخاصة فقد قرر أن يذهبوا إلى أحد الملاهى الشهيرة، حتى تسعد أم السعد زوجته ويرتدى نجله الوحيد عبدالله البدلة الجديدة التى اشتراها له فى العيد الماضى، وتحرك الركب وفى مقدمته سيارته الفولفو الحمراء يقودها الحاج بنفسه ومعه أم السعد يليه سيارة عبدالله وهى من النوع الحديث المصنوع فى كوريا ويركب معه شقيقاته الثلاث، وبالفعل قضت الأسرة سهرة ممتعة وقد حضر صاحب الملهى إليهم ليقدم تحياته للحاج وأسرته كما توالى حضور الفنانات إلى مائدة الحاج الذى كان يقلد كل واحدة منهن عقدا من الأوراق النقدية.. بينما كانت أم السعد تأمر بناتها الثلاث بالاعتدال فى مجلسهن وغلق أفواههن، وكانت فى كل مرة تهدد بالعقاب المنزلى بعد العودة، وإن كانت البنات ومعهن عبدالله فى حالة اعتراض على هدايا الوالد للفنانات، انتهت السهرة بسلام وعاد الركب كما بدأ.

فى الغد جاءت إلى المحطة سيارة فارهة وهبط منها السائق الذى انحنى باحترام وهو يفتح أبواب السيارة لثلاثة من الرجال ذوى الملابس الأنيقة، وأسرع السائق نحو استراحة الكلاب بالمحطة وأخذ يشرح فائدتها، لاحظ

الحاج أن الرجل الأول راح يسخر بشدة من الفكرة أما الرجل الثانى فقد ظل صامتا وأظهر رغبته فى الانتهاء من خدمة السيارة بسرعة، أما الثالث فقد أظهر الكثير من التأثر وكاد جسده يرتعش تأثرا، تقدم الحاج إليهم ودعاهم إلى حجرته المكيفة وتناول الشاى حتى ينتهى عماله من خدمة السيارة التى أبدى إعجابه الشديد بها، ولاحظ الحاج أن الرجل كان متأثرا حتى أنه أخرج صورة ملونة لأحد الكلاب وراح يتأملها بحب شديد ولما سأل الحاج عن سر تأثر الرجل بصورة الكلب، ناوله الرجل الصورة مؤكدا أنه مستعد لدفع مبلغ يصل إلى ربع مليون جنيه، وفجأة تذكر الحاج الكلب الأسود الذى كان مع الحسناء فقال: - رأيت مثل هذا الكلب هنا فى المحطة مع سيدة.

أبدى الرجل اعتراضه؛ لأنه لايوجد لهذا الكلب مثيل وأنه اشتراه من سيدة بلجيكية وأنه ضاع منه وهو على استعداد لدفع أية مبالغ لاسترداده، تأمل الحاج الصورة وتأكد أنها لنفس الكلب الذى كان مع السيدة التى ذكرت أنه من بلجيكا وأنه يساوى الآلاف، فراح يؤكد للرجل أنه فعلا رأى هذا الكلب وأنه كان مع سيدة جميلة تقود سيارة فارهة من نفس الموديل الذى معهم الآن، وأكد أنه يستطيع إثبات رأيه، فأخرج الرجل حافظته وقال: - عشرة آلاف من الجنيهات تحت حساب استرداد الكلب وعلى استعداد لدفع عشرين مثل هذا المبلغ.

أبدى الحاج دهشة من حماس الرجل ومن الأوراق النقدية التى أخرجها الرجل من جيبه بسهولة، وأبدى اعتراضه لأن السيدة لم تظهر بعد المرة التى جاءت فيها إلى المحطة، ولكن الرجل ازداد حماسة وقال: - حتماً ستعود، بما أنها جاءت مرة فهى تعرف المنطقة.

وأنهى الرجل حديثه بأن المبلغ مجرد عربون للاتفاق وأنه يترك بطاقته بها رقم التليفون الخاص به للاتصال فى حالة حصول الحاج على الكلب من السيدة بأية مبالغ وسوف يحضر فورا لتسديد الثمن واعتبار العشرة آلاف مجرد مقابل لأتعاب الحاج ولن ينسى له هذا الجميل.

تشجع الحاج المواردى، أخذ النقود وتأمل بطاقة الرجل، كان العمال قد أنهوا خدمة السيارة كما انتهى الثلاثة من احتساء الشاى وانصرفوا، وأخذ الحاج المواردى يفكر فى الحسناء ويمنى نفسه بربح طائل لأنه يمكن زيادة السعر إلى الرقم الذى طلبه الرجل وأيضا مساومة السيدة على تخفيض الثمن،... أخذ الحاج المواردى يتجول باحثا عن السيدة وكلبها فى معظم محطات إمبابة والعجوزة والدقى والمهندسين ولم ينس محطات الزمالك فهى الأقرب إلى المنطق من حيث سكن السيدة الحسناء، مستعينا بالصورة والصفات التى ذكرها الرجل الذى اتصل بالحاج بعد أسبوع مستحثا إياه لكى يصل إلى السيدة، أما عمال محطة الحاج جلال المواردى فقد راحوا يسألون عن السيارة

وصاحبتها وكلبها وأكدوا للحاج أنها جاءت إلى المحطة من قبل عدة مرات، قبل أن يعلموا بأهمية الكلب عند الحاج، أما فيما بينهم فقد سخروا من السيدة وكلبها وسخروا أكثر من الحاج صاحب المحطة المشهورة ومن استماتته فى البحث عن الكلب الأسود، وراحت النكات الساخرة تجد طريقها بين عمال محطة البترول وبعض سائقى التاكسى الذين يتعاملون مع المحطة بشكل يومى، ولكن سرعان ماذابت دوامات السخرية وطارت النكات مع فرحة الحاج الماوردى عندما شاهد سيارة السيدة الجميلة تقتحم المحطة، وسمع الناس لهفة الحاج وحرارة استقباله للسيدة وكلبها الأسود وأصر الحاج على أن يستضيف الحسناء بحجرته الخاصة وأيضًا كلبها الأسود الذى أمر أن يحضروا له لحماً مفروماً فى التو واللحظة وأبدت السيدة دهشتها من استقبال الحاج الذى أسرع وعبر عن رغبته فى شراء الكلب، وتمنعت السيدة والحاج يزيد فى الرقم إلى مائة ألف من الجنيهات نقداً، شربت الحسناء كوب الليمون حتى منتصفه وأبدت رغبتها فى الانصراف بكلبها لأنه عزيز عليها ولاتقدر على فراقه ثم إن المال لايهمها فلديها الكثير منه.

وأخرج الحاج الماوردى من الخزينة مائة وخمسين ألف وأقسم أنه لن يزيد وأنه سوف يحصل على الكلب مهما كان الأمر، بكت الحسناء وهى تسلم مقود الكلب للحاج الذى امتلأ وجهه بالسرور والغبطة، وبكت وهى تدس الأوراق

النقدية فى حقيبتها، واستدارت وهى تمسح دموعها التى انهمرت بشدة فأثارت حزن العمال حتى أنهم نسوا محاسبتها على أجور خدمة السيارة وملأ خزانها بالوقود، وربما يجدوا عند الحاج جلال المواردى السعيد بحصوله على الكلب بعض العزاء، كان الكلب شرها فأكل ماحملوا إليه من لحوم وبدأ يتلمظ باحثاً عن المزيد.. ولم يهدأ الحاج حتى اتصل بالرقم الموجود على بطاقة الرجل حتى يأتى ويأخذ الكلب ليحصل الحاج على ربع المليون من الجنيهات كما وعده الرجل، ولكن بعد عدة اتصالات وبعد سؤال مركز الهاتف عرف الحاج أن الرقم وهمى لاوجود له، بالفعل، واستشاط الحاج المواردى غضبا ولكنه لم ييأس، أرسل عماله للبحث والتحرى، اتصل بمكتب السيد المحافظ لإرشاده للطريقة التى يمكن الوصول بها إلى هذا الرجل، هاجت المحافظة ولم تهدأ جاءه رئيس المباحث ليعلن أن المعلومات التى لدى الحاج معلومات وهمية، وأنه هكذا قال رئيس المباحث الذى كان يعتز بصداقته للمعلم وأنه للأسف وقع فى شباك نصاب، واقترح أن يرسل الحاج إلى أحد المعامل البيطرية للكشف عن حقيقة الكلب، أكدت تلك المعامل أن الكلب المصبوغ باللون الأسود كان محقوناً بمادة مخدرة وأنه من النوع البلدى عديم القيمة وأنه متوافر فى كل مكان وخاصة أماكن الزبالة والخرابات والعشوائيات.. تضاءل الحاج المواردى وانكمش فى حجرته المكيفة الخلفية لا يريد أن يبارحها.

أما الكلب الأجرب اللون فقد وضعه فى منزله حتى لايراه الناس فيسخروا منه بعد أن هدم الغرفة التى كان قد خصصها لخدمة كلاب الزبائن... وعندما كان عبدالله يتأهب للذهاب إلى المدرسة تعثر فى الكلب الأجرب فداس عليه بقدمه دون أن يقصد ولكن الكلب الأجرب لم يتركها له فعقره فى فخذه بضراوة، وعندما علم الحاج جلال الماوردى بالخبر وقبل أن يحمل ولده إلى المستشفى، أطلق على الكلب الأجرب رصاص مسدسه وأرداه ميتا..

والذين يمرون على ميدان المساحة الخضراء الآن يرون رأس كلب أجرب محنطة مثبتة على الجدار البارز لمحطة الحاج جلال الماوردى وقد تدلى لسانه وتحجرت عينيه.. يشير الناس إلى رأس الكلب المحنطة ويبكون على حال الحاج جلال الماوردى الذى لم يهتم بمسابقة محطات الوقود ولم يحفل باستقبال السيد المحافظ وانطفأ بريق المحطة ولم تعد كما كانت.. لقد صارت محطة رأس الكلب.. واندلقت رأس الحاج جلال الماوردى على صدره.

«لماذا لا يتكلم الرجل الآخر»

ماذا كان يحدث لو تكلم ذلك الرجل القصير القامة الذى تحرك بسرعة تجاه الشارع الخلفى؟ ساد الصمت المكان، عطس الرجل العجوز، وتقدم عمنا محمود نحونا وقال: - هيا اذهبوا أنتم أيضاً.

لم تكن الجملة التى قالها توحى بشىء محدد، ماذا يريد أن يقول بكلمة أنتم أيضا؟ لماذا نحن أيضا؟ هل نفهم من هذا أن الرجل الذى مضى يخصنا نحن تحديداً؟ لقد لوح الرجل بيده اليمنى فى عصبية عدة مرات، ثم هز رأسه وكأنه سوف يحكى كلاما كثيرا ومهما، ولكن قبل أن يفتح فمه بالكلام قام وانصرف مسرعا وكأنه تذكر شيئا، قال عمنا محمود:

- كان الممكن إنهاء المشكلة والعمل على بذل الجهد بعد ذلك لإصلاح الحال، ولكن...

وأشار إلى انصراف الرجل، لم نكن نتوقع من عمنا محمود أن يوجه إلينا اللوم، بل لم نتوقع أنه سوف يوجه إلينا الحديث مطلقا، ولكنه الآن يبدو أنه يحاسبنا على خطأ ما، نحن لم نعد مجرد مدعوون لحضور المجلس، بل صرنا موضوع الجلسة، ولب القضية، وكأن الرجل الذى انصرف كان زعيمنا أو على الأقل المتحدث باسمنا، حاولنا أن نتذكر أين قابلنا هذا الرجل، وكيف عرفناه، ومن هو ، لم نجد لدينا إجابة، أعدنا على أنفسنا طرح التساؤل عن المشكلة التى انعقد من أجلها المجلس، وبالتالى لماذا

حضرنا؟ ومن وجه إلينا الدعوة؟.. وأخيرا كيف نخرج من هذا المأزق؟ كيف نتخلص من الاتهام المسلط علينا من عمنا محمود؟ بماذا نجيبه؟ وماذا نقول فى الوقت الذى راح فيه عمنا محمود يتحدث عن أهمية احترام المجلس، وعن ضرورة مراعاة الأصول والواجبات، وحق الجماعة، وأهمية الانتهاء من الحلول المتوقفة على الموافقة؟.. قال أحدنا فى حماس:

ـ تذكرته، إنه ذلك الرجل الذى يجلس دوما عند كوبرى السكك الحديدية، ونراه ونحن ذاهبون أو عائدون.

حاولنا التذكر، ولكن لم تكن هناك سكك حديدية، ولايوجد كوبرى فى الطريق، ثم إن الرجل الذى انصرف لايبدو مثل الرجال الذين يجلسون بجوار الكبارى، إنه... قال رفيق آخر:

ـ هل تذكرون يوم حاصرنا الجند ونحن ذاهبون إلى زيارة الرجل المريض، كان هو ذلك الذى أنقذنا من أيدى الجنود ولازمنا حتى خرجنا إلى خارج المدينة.

قال آخر فى ضيق: ـ ليس هو بالتأكيد، كما أن هذا ليس مهما، السؤال ماذا كان سيقول هذا الرجل؟.

قال رفيق كان صامتاً:

ـ السؤال ماعلاقتنا نحن بكلامه، قاله أو لم يقله!

قال عمنا محمود:

- يجب أن تخجلوا من أنفسكم، فأنتم سبب هذه الأزمة، والجميع يحاولون من أجلكم، لكنكم لاتشعرون.

تداخلنا، حاول كل منا أن يتساند على زميله، ياه.. نحن اذن داخل الموضوع ومحوره، والسبب فى وجود هذا التجمع، ونحن لاندرى.. معه حق عمنا محمود لكى نخجل من أنفسنا، وقفنا جميعا صفاً واحداً، تحركنا إلى الأمام خطوة ثم إلى الخلف، درنا فى دائرة داخل دائرة الجماعة، رفع كل منا ذراعيه إلى أعلى، حركنا الأذرع إلى الأمام وإلى الخلف، خلعنا القمصان، وأشار كل منا إلى صدره العارى، لاحظنا أن عمنا لمحمود لم يبد اهتماما بما نفعله.

خلعنا سراويل ورقصنا فى دوائر، كنا نشعر بالبرد ولكن كنا على ثقة أن الجماعة سوف يسعدها أن تعرف كل شيء عنا، صاح عمنا فى سخط:

- ألا تشعرون بالخجل حقا، ماذا تفعلون؟

وقفنا عرايا لا ندرى ماذا نفعل، قال أحدنا:

- تذكرته، إنه الرجل الذى أعطانا تذاكر حضور المهرجان القومى إنه هو فعلا.

قاطعه آخر:

- لو كان هو ما تذكره، ما علاقتنا نحن به؟ وما أهمية ماكان سيقوله بنا؟.

قال رفيق آخر:

ـ والآن، هل نرتدى ملابسنا وننصرف.. فنحن جوعى..
وما كاد يقول ذلك، حتى انتفض عمنا محمود زاعقا:

ـ لم يعد للحياء وجود، أنتم لاتهتمون بأى شئ، حتى ذلك الأمر الذى يخصكم، هل جاء هؤلاء لكى يتفرجوا على أجسادكم، إنهم جاءوا من أجل مصلحتكم...

لم نكن ندرى ماهى مصلحتنا، بل إن كلمة «مصلحتكم» هذه لاتعنى شيئا، وهل هذه المصلحة كانت متعلقة بكلام الرجل الذى انصرف قبل أن يتكلم؟ وإذا كان هذا صحيحا، فهل تمت دعوتنا من أجل تلك المصلحة؟ ومن الذى تفضل بدعوتنا؟ لو أننا عرفنا من قام بدعوتنا نعرف منه سر هذا الأمر الذى يؤرقنا، بل يربكنا بشكل خطير، هل هو عمنا محمود؟ سمعناه يقول:

ـ هذا المجلس الذى جاء أفراده من كل مكان، بل بعضهم جاء من أخر الدنيا من أجلكم..

لاندرى أخر الدنيا هذه، بماذا تدل؟ ماهو أخر الدنيا؟ ومع هذا يبدو أنه هو الذى قام بدعوتنا، ولكنه قال بعد ذلك:

ـ كان يجب أن يخبركم الرجل بكل شيء، فهو الذى كان صاحب الرأى فى جمع الناس، وكان خطيباً مفهوماً، ولسانه يتدفق بالكلام الحكيم، ولكنه انصرف الآن..

عدنا نضرب أخماسا فى أسداس، الرجل انصرف، ونحن

لانعرف من هو هذا الرجل الذى انصرف، وماعلاقته بنا؟ وماذا يريد عمنا محمود تحديدا بنا نحن؟ لماذا هو الذى يتحدث باسم الجماعة الجالسة؟ من هو عمنا محمود؟ ولماذا هو عمنا؟ ومن الذى أطلق عليه اسم محمود؟... قرر رفيق معنا أن ينصرف، ارتدى ملابسه واتجه نحو الخارج، ولكن مجموعة الرجال الملثمين أعادوه بقسوة إلى الداخل، ضحك عمنا محمود:

- إنهم لا يريدون انصرافكم قبل أن يعرفوا منكم الحقيقة، فهل تخبروهم بما كان الرجل ينوى قوله أم أنكم لاتريدون البوح بالسر؟ كل هؤلاء يعرفون السر ولكنهم يريدون سماعه منكم أنتم.

تبادلنا النظر، تهامسنا، اتفقنا أن نقول كلاما، أى كلام، مجموعة من الكلمات نشكلها جملاً وينطق بها بصوت واحد، قلنا:

- السمك فى العادة لا يرى صياد الأرانب البرية، وعلى هذا فإن الأسد يرى أن حقه قد تم المساس به.

لم نر أثر لكلامنا، ظل الصمت سائدا، حتى أن عمنا محمود كان يعانى من رغبة شديدة فى النوم، تبادلنا النظر، فكرنا أن نعاود فعل ما فعلناه، كان التعب قد هدنا، وشعرنا أنه من الأفضل السكوت مثل الجميع، لماذا نتكلم نحن، من حقنا أن نكف عن الكلام والسؤال،..

بعد عدة ساعات أخبرونا بصدور حكم الإعدام علينا،

وأنه سوف يتم فى فجر اليوم التالى، عاودنا النوم ربما يأتى الرجل الذى انصرف ويتكلم ويكون فى كلامه الخلاص، وإن كنا لم نعد نهتم لابكلام الرجل أو بتفيذ حكم الإعدام...

«أودعكم وأنا أبتسم»

هل تذكرون الرجل الذى قتل زوجته؟

ذهبت إليه بالأمس، قالوا نقلوه إلى المستشفى لعلاجه من مرض عقلى أصابه فجأة، لم أتخلف عن الذهاب إلى المستشفى، إجراءات الزيارات أخذت منى جهدا ووقتا ومالا، ولكنى تذكرت أنه كان زميل شلة النادى الذى لم أعد أذهب إليه بعد الحادثة، وعلمت أنهم جميعا تفرقوا، وأن عدد الأزواج الذين تركوا زوجاتهم أكثر من النصف، وسمعت عن الأحزان التى أصابت الأبناء، وسمعت أيضا عن الولد الذى سرق أباه واحتال حتى أخذ كل ماله، ولما ذهبوا إليه قال: أنا مستعد للذهاب إلى السجن، ولكن الوالد لم يستطع إبلاغ الشرطة، ودخلت حديقة المستشفى، وقادنى رجل رث الثياب إلى عنبر متسع مكتظ بالأسرة التى كانت فى يوم من الأيام بيضاء، كان جالسا على حافة فراشه قال عندما رآنى:

- هل تذكر أيام أن كنا فى مرسى مطروح؟

قلت: نعم.

ابتسم وقال: شارع المحطة ازداد اتساعاً وقد سرنا أنا وهى عبر الشارع حتى معبد الكرنك، قلت مبتسما: تقصد رحلة الأقصر؟ قال: نعم، وحدثتنى عن عشش رأس البر، ودخلنا إحداها، واخترنا أجملها، كان البحر خلفنا، والنيل أمامنا، والصيادون فى مراكب الصيد يرسلون التحية كل صباح، وهى تشترى منهم كل يوم. قلت: حدث هذا فى

مـصـيف رشـيـد. قـال فى دهشـة: هل أنت مـعنا فـى نفس الرحلـة؟ قلت: كنت مـعكم. قـال: أمس ذهبنا إلى مـحطة الرمل وجلسنا فى انتظار الترام واشترينا الصحف وأكلنا، ثم ذهبنا إلى بور فـؤاد، كـانـوا يحـتـفلون بـالأمس بحـرق تمثـال «اللنبى» جـاء الرجـل الذى أوصلنى إليـه وقـال: الطبيب يـرجوك الإنصراف. قـال صـديقـى: دعنى أعـرفك بزميلـى فى الرحلة، كنت أنا وهو وهى نعبـر ميدان النافورة بروما، عندمـا سمعنا صوت محمد عبدالوهاب، قـالت: إنها تذكـرها بأول يوم تـقـابلنـا، وكـان بالأمس، قلت: تمهل ولاتجهد نفسك، نظر نحوى فى ضيق وقال:

- هل تظننى مجنوناً!

قلت بسرعة: لا ولكنى..

قاطعنى فى غلظة: ماذا فعلت مع زوجتك؟، قلت حزينا: - انفصلنا، مـاكاد يسمع الكلمة حتى انتفض غـاضبـا وراح يسبنى فى قسـوة، ويتـهـمنى بالرعـونة، والتسـرع وعـدم الأمـانة مع النفس، وأخذ يصف زوجتى بالكياسة والطيبة والجمـال والأخلاق الكريمة، ولم أحـاول مقـاطعتـه، كـانت نفسـى تمور بأشيـاء غـريبـة، أحـاسيس مـضطربة وعـقلى يغطيه غيوم، وقلبى ينتفض من الحـزن، تصاعد الألم من صـدرى إلى رأسى، حـزيـن هو لأننى انفـصلت عن زوجـتى، إنها سـمة العـصر ياصـديقى، فى كل ثانية يأتى مـولود وفى كل ثانية ينفصل زوجان، لم تعد الأشياء كما كانت من قبل،

وأنت قتلت زوجتك، لم تفعل شيئا سوى أنها زهدت فيك وتركتك تعوى مثل ذئب جريح، أنت قتلتها والآلاف غيرك لم تكن لديهم الشجاعة مثلك، وآثروا الهروب من مذبحة الذئاب، كل الذكور تذبح بعد التزاوج، خرجت وأنا لاأدرى هل هو على حق أم أنا الذى أخطأت التقدير؟ قتلها واحتفظ بها داخل عقله، تراكمت الصور واختلطت وضاعت معالم الأمكنة والأزمنة صار الكل فى صدره، والصورة ثابتة، لكزنى الرجل فى الشارع بقسوة، شعرت بالمهانة والإهانة، وددت لو أننى صفعته لكنى لم أفعل، ولم أجد فى نفسى الشجاعة لكى أفعل، عندما طالبتنى بالطلاق، ظننت أن الأمر لايعدو أن يكون تهديداً ووعيداً، أعرف هذا من الأفلام، ولكنى لم أكن أعرف أن الأمر جاد بالنسبة لها، ذهبت إلى النادى كانت أم كلثوم تغنى «جددت حبك ليه»، لا أعرف، هى لم تعد تحبنى، وأنا أحبها، بكيت، طالت جلستى، كان الساقى يحضر لى أكواب الشاى تباعاً، شعرت بلسعة البرد، وبقسوة الفراق، عدت إلى البيت، لم يعد لى وجود، عزلتنى ابعدتنى عن قلبها ورأسها، حاولت النسيان، لم تعد تمل من تكرار طلب الانفصال، أنا حائر لا أدرى ماذا أفعل، هل أطلقها؟ هل أظل هكذا مثل السنبلة المعلقة على دار عم عباس الجنايني لانفع فيها ولاضرر منها، تخرج، تدخل، تتحرك، فى كل حركاتها تقول، فارقنى، هل زمن الرجال ذهب ياعم نجيب أين «سى السيد» أين هيبة الرجال، صديقى خنقها، قتلها، ولكنه لم يسترح، دخلت

عليـه عـقله وهو فى الـسجن، اسـتـولت عليـه وتربـعت على أكتـافه وعاشت بدلاً منه فى جـسده، هى هناك فى كل مكان ذهب إليه، اختلطت الأمكنة وبقيت هى،.. رأيتها تنزلق معى فى ماء مرسى مطروح، نغوص، تصرخ عندما أداعبها تحت الماء، تصعـد وهى تشرق مـثل ضوء الشمس، تجـرى نحو الشـاطئ، تناولنى الطعـام، تمسح وجهى بيديهـا، تقبلنى والعرق يبلل كل وجهى، تتشمم ملابسى تقـول إن رائحتـها معطرة، أشعـر بالامـتلاء، عندمـا أذهب بمفـردى إلى مكان أردد اسمـها أتمنى أن تكون مـعى، أصحبـها مـعى، أصيح فى الأمكنـة النسـيمـة: أحـبك أحـبك، تندفع نحـوى حـتى لا يسمـعنا أحد، شـارع المحطة فى أسـوان، على يمـينـه باعة الفـول السـودانى، هل هو شـارع مـحطة أسـوان أم مـحطة الأقصر، أم مـحطة بور سعيد؟ المحطات متشابهـة والباعة فى كل مكان، وهى طويلة نحيلة سمراء، تفرض على المكان حضورها، ألف وأدور حولهـا، أناديها لكى أشعر أننى لاأزال أعيش، تضع رباط العنق حول رقـبتى تقـول: هذا الرباط أنيق، ثم تقـول: كل شىء فيك جميـل. انتشى، ألف حـولهـا، أشعـر أننى اشتاق إليهـا، طالبـتنى بالانفصـال مثل كل يوم، خرجت تائهاً، رفعت رأسى فى السمـاء، ناديت يا الله،.. أدور دورة كاملة، أصرخ، النجدة، لا أحد يقول شيئا الأمر يزداد عنفـاً، وقلبى جـريح، والمرض هدنى والوحدة داخل غـرف المستـشفيـات دفعت إلى عـقلى رياح الهـواجس، أنظر إلى أطفـالى، أنام، أحلم بعـالم جـميـل يسـوده الهـدوء، ولكن

الصباح يحمل أخبار الحروب والقنابل والزلازل والسيول، وابتسم عندما فاجأتنى زائرتى بأنها لم تكن تود الطلاق، ولكنها أرادت أن تعرف مدى حب زوجها، ولكن زوجها مايكاد يسمع طلبها حتى أجابها إليه، رجل مطيع، لا يحب مخالفة أمر زوجته، أقصد التى كانت زوجته، ضحكت، مجرد تهديد ورغبة فى المعرفة، تحولت إلى مأساة والآن هى تود الزواج من سيد سيده حتى تكيد له، وأين هذا «السيد سيده»، لم يعد هناك سى السيد، كما أنه لم يعد هناك الست سيدة، تنازلا هما الاثنان عن السيادة، لم يعودا إلى عصر الكرامة، دخلا عصر الطعام الجاهز، والعلاقة السريعة، والأعصاب المفلوتة، وضاعت هيبة فرويد، وأرسطو وأفلاطون، كما ضاعت الكلمات التى قيلت والتى كانت تقال، قالت لى: أنقذت حياتى من مصير مجهول، قلت: لاأبغى إلا وجه الله، قلت: أنت تتنكرين الآن للجميل، قالت: الماضى تسبقه كان، وكان ذهبت لحالها، وتمر الأيام، أراها فى شوارع المحطات فى كل البلاد أراها فى صالات الفنادق والمطاعم ومراكب الرحلات أراها فى الماء، وتحت الماء، أراها فى نومى ويقظتى،.. ذهبت إليه قلت لا أريد حديثا مطولا، فقط صف لى كيف قتلتها، نظر نحوى فى دهشة وقال:

ـ من؟، قلت: زوجتك، صرخ فى غيظ: أنا لم أقتل زوجتى، إنها معى ألا تراها كيف أقتلها وهى أمامك الآن ألا تراها؟ كيف تتصور أن أقتل نفسى، روحى، عقلى، حياتى؟ ثم راح فى حالة هياج شديد، دفعنى الرجل المتسخ الملابس حتى

خرجت من المستشفى، عدت إلى البيت، أحاول أن أتخيل كيف أقتل زوجتى، قالت: كن رجلا وطلقنى، لم أعد كما كنت من قبل، لم أعد رجلا، تنقلت فى البلدان وفى محطات القطارات، وفى شوارع المحطات، ذهبت إلى النيل فى أسوان، وذهبت إلى البحر فى رأس البر والجربى ومرسى مطروح، ذهبت إلى محطات المترو، عدت إلى النادى جلست وحيدا، كانت أم كلثوم تغنى «عودت عينى على رؤياك» شربت أكواب الشاى لم أسمع صوتها، ولم أراها فى كل الأماكن التى تصورت أن أراها هناك لم تعد تأتى، لا فى الأحلام ولا فى الخيال،... ذهبت، وضاع الحب ياولدى، وضاعت الأيام، والوفاء، وكل شئ جميل، ودفعت ياولدى أنت الثمن، ورأيتك فى الميادين والشوارع، وبين أرفف المكتبات، تنادينى وتبكى، لم أعد قادرا على احتوائك بين أحضانى، لقد قتلتنى أمك، ودخلت أنت شرنقة الألم والوحدة،.. أشعر بالبرد، اتقلص، انكمش على نفسى ولكن لاأشكو ولاأتذمر.. فقط أودعكم وأنا أبتسم.

«حكاية امرأة الجيران»

اندفعت نحو أمها باكية، قالت الأم:

- إن الأيام التى قلت ذلك كانت هى الأهم.

وعندما صعدت الدور العاشر من المبنى الكبير، قال لها رجل عجوز:

- إن الأوراق لم تهد مهمة.

طوت الأوراق وراحت تتأمل السماء الزرقاء المرسومة خلف الرجل الأشيب، كان يبتسم وهو يتلكم، تذكرت رفيقتها فى المدرسة.

- يقولون: إن الرجل ثرى!

ابتسمت وهى تتذكر رفيقتها عائدة باكية، قالت أمها فى غيظ:

- ليست وش نعمة!.

سألت حسام وهما يسيران نحو حديقة الأندلس عن «وش النعمة» ضحك حسام بشدة وقال:

- الدولار.

شعرت بالألم وهو يسخر منها، كانت لها أحلامها، كانت تضع رأسها على الوسادة وتسير نحو كوشة الورد، والموسيقى تصدح والغناء، والطعام، وبعدها.. تنام تشعر بالإرهاق، عندما تنام فى الليلة التالية تحاول استكمال الحلم المصنوع ولكنها تبدأ من الأول، كوشة الورد

والموسيقى والطعام، سألت ذات مرة نفسها:

ـ ماشكله... ومالون عينيه؟.

لم تتلق الإجابة، قال الرجل الشائب:

ـ فى البداية سيكون الأمر صعبا ولكن الأيام كفيلة بكل شىء.

أعطوها أوراق كثيرة، فى اليوم الأول ظلت تعمل حتى وهى نائمة، كان السفر فى الأحلام صعبا، وحسام سافر والأب سافر، وكل شىء لم يعد كما كان، قال العجوز.

ـ ماذا تظنين نفسك.. أنت هنا لاشىء.

حذرتها أمها، الرجال ليس لهم أمان، كانوا فى المدرسة يحكون عن البنت التى تزوجت من البيه، والبيه الذى هرب مع البنت وعندما دخلت غرفة البيه، لم يرفع رأسه يداها، تذكرت رفيقتها وقالت سوف أكون وش نعمة... الرجل لم يعطنا لحما منذ أسبوع، والجيران يقولون إننى يجب على الذهاب إلى المسجد المجاور، سأكون وش نعمة ولكن لم ينظر إليها وقال لها الرجل الأصلع:

ـ لا تدخلى هنا مرة أخرى.

وصارت حكاية، الرجل لم ينظر إليها، والعجوز يقول إنه مع الأيام يهون الصعب، لكن الأيام تمضى ولا شىء يهون والصعب تلال، أطفال، والجوع سد عال يخنق الهواء ويجعل من الماء دواء، والناس لايكفون عن الهمس، والوجه

امتلأ بالتجاعيد.

وفى كل يوم، تجلس إلى الماكينة، مع الأيام هان الورق ولم يهن الصعب، وتعلمت الكلام، وجدت أن الكلام يخرج مع الهواء ولايعود، وعشرون عاما، والأطفال يكبرون والطعام يقل، قالت الجارة:

- رحلة الأم.

بكت بعض النسوة، ورقدت هى على الفراش لأول مرة وحدها ياه.. الفراش عريض، طويل، بارد، تمددت تمايلت، تدحرجت، تنفست، دارت بجسدها دارت، البرد زاد غطا البلاد، زاد عن حده، ياه.. صرخت جارة، أندفعت ترى ماحدث، لم يكن شيئا حدث.. قالوا: ضربها مقصوف الرقبة، ابتسمت النساء فى بلاهة، قالت واحدة فى سخرية:

- ليست وش نعمة.

تعجلت الذهاب إلى حجرة الماكينة، ورفعت الغطاء، وقصت على الأخريات الحكاية، نست رحيل أمها، ونست برد الفراش، ورائحة عطر الموت، راحت تقص..

المرأة قالت: لن أسكت حتى أنال حقى، ضربها الرجل بسكين، نزلت السكين من صدرها ودفعت بها نحو رأسه ولكن الرجل زاغ، قالت المرأة: أعطنى حقى. قال الرجل: أنا ملك يمينك ولكن هات السكين، وقفت المرأة على صدره ورفعت السكين وانهالت عليه ضربا، قالت: أنت لم ترفع

بصرك نحوى، أنت لا تبصر جمالى، انظر.. هذا هو جمالى الحقيقى، أنوثتى الصارخة، انظر كيف يبدو صدرى، انظر كيف يبدو شعرى طويلاً طويلاً حتى قدمى..

وتجمع الرجال ونظروا، وبلغ الأمر إلى الرجل الأصلع، قالوا:

- فلما ذهبنا بها إلى هناك رفضوا استلامها.

قال الرجل الأصلع:

- وماذا نفعل؟.

قال الرجل العجوز:

- لاشىء.

ثم جلس الرجل العجوز وأخذ يتابع الأوراق، وتبعه الآخرون وانصرف الرجل الأصلع، وهدأ الحال، وقال بعض الرجال.

- الزمن كفيل بحل المعضلات.

وقالت النسوة:

- إنها تسلينا حتى نتحمل الوقت الكئيب.

أما هى فقد راحت تقص عليهم حكاية امرأة الجيران، كانت فى كل يوم تضيف جديدا، ولا تدرى لماذا ينظرون إليها هكذا وخاصة الرجال، همس لها ذات يوم شاب ضعيف البصر.

- إنهم يسخرون منك.

ابتسمت فى سعادة، وصاحت:

- اليوم فقط شعرت أننى امرأة.

فى اليوم التالى، كانت تجلس صامتة هادئة تكتب الأوراق، وعندما سألوها عن بقية حكاية امرأة الجيران، قالت دون اكتراث:

- ماتت..

«أهـلا»

فى الإمكان رصد حركة الرصيف الأوسط لمحطة سيدى جابر، عشرة أفراد من الأجانب يرتدون البنطلونات القصيرة، تبدو على وجوههم اللهفة والترقب، صامتون، يقفون على شكل طابور، الحقائب تبدو مثل البط الأسود الراقد على جسر الترعة، اندس عتريس وسط الأجانب، ثم دار حولهم، لم يحاول أحدهم اعتراضه، وقف أمام أطولهم وراح يتأمله، ثم صاح.

ـ أهلاً.

جاء القطار متسللا إلى محطة سيدى جابر، وانصرف، راح يبتعد فى تمهل، حتى اختفى، كان الأجانب لايزالون فى مكانهم وكان عتريس قد اختفى، بعد قليل جاءت مجموعة من النساء الأجنبيات ذوات شعر أشقر قصير، يرتدين البنطلون القصير، ويكاد نصفهن العلوى يبدو عاريا، وقفن فى طابور مقابل لطابور الرجال.

اقتربت منهن بائعة وصاحت فى غلظة:

ـ يا فتاح يا عليم!

لم تتحرك النسوة وكذلك فعل الرجال، تواترت عدة قطارات مرت بالرصيفين الأيمن والأوسط، كانت قطارات تثير الغبار، ويتكدس عليها وحولها بشر كثير، وباعة ينادون بصوت عال، ثم جاء قطار جميل الشكل خفيف الحركة وتوقف عند الرصيف الأوسط، ظل واقفا برهة ثم تسلل خارجاً، اختفى مع انحناءة التحويلة، كان طابور الأطفال قد توقف بجوار طابور

النساء الأجنبيات، الأطفال كانوا بصحة جيدة حمر الخدود، بيض الأجساد، ملابسهم ملونة بألوان زاهية، وفى أيديهم البسكويت الذى يلتهمونه فى شراهة، ولكنه لاينفد، جاء عتريس وكأنه هبط من الفضاء وقال للأطفال:

ـ أهلاً.

عتريس يعرفه كل من يستخدم محطة سيدى جابر، وله أصدقاء من الركاب وأيضا من موظفى المحطة، لايتحدث كثيرا، ولكنه دائما يشير إلى الجنوب، ظنه بعض زبائن المحطة من أساتذة الجامعات الإقليمية الذين يستخدمون القطارات كل يوم ويحملون بطاقات ركوب مخفضة، إنه مجنون، وكانوا يتجنبونه ولايلقون إليه تحية الصباح كما يفعل بقية الركاب، اختفى عتريس كما جاء.

اختلطت طوابير الأجانب، وتكورت كل مجموعة فى حلقة، سيدة وطفل ورجل يمسك بالحقيبة، امتلأ الرصيف الأوسط عندما جاء القطار السريع الذى لايتعامل مع البطاقات المخفضة ونزل منه عدد من الرجال والنساء الأجانب، الرجال يرتدون ملابس قصيرة فاقعة اللون، والنساء يرتدين ملابس داكنة تبدو خشنة، ولم يقفوا مثل القدامى، إنما تحركوا فى كل اتجاه حتى صار الرصيف مكتظا بهم، لم يستطع عتريس أن يندس بينهم، وقف على الرصيف الأيمن وأشار بيده مرحبا وقال:

ـ أهلاً.

تمخظر ناظر المحطة وجاء ليقدم خدماته الجليلة لمجموعات الأجانب ولكنهم لم يعيروه اهتماما واضطر أن ينصرف، ولم ينس أن يلعن حظه العاثر الذى جعله ناظر لهذه المحطة، اقترب منه عتريس وهمس إليه بكلمات.

جاءت الشرطة وطوقت المحطة، وزحف الأجانب إلى الرصيف الأيمن بعد أن ضاق بهم الرصيف الأوسط وكانت فرصة لعتريس أن يذهب إلى هناك ليقول.

ـ أهلاً.

بدأ الركاب ينفضون، البعض منهم راح يتمتم ثائراً والآخر ابتسم فى سخرية، كانت الجند يشكلون مستطيلاً محكماً حول المحطة.

جاء طفل مع أمه الريفية، والتى ظهر أنها لاتعرف إلا ضرورة الإمساك بالقطار حتى لايفوتها، وسأل الطفل فى براءة أحد الأجانب عن موعد قطار أمه لم يجبه الرجل، أعاد الطفل السؤال، ولكن الرجل كأنه لم يسمع، اغتاظ الطفل وقد رأى حال أمه الملهوفة وصمت الرجل هكذا، فضربه فى قدمه، صرخ الرجل الأجنبى وقد ازداد إحمرار خديه، صاحت المرأة التى معه بلغة ركيكه فى الطفل، ازدادت ثورة الطفل الذى مع أمه وضرب قدم السيدة فى غلظة، صاح الطفل الواقف بجوار السيدة التى ارتعشت رأسها من فرط الألم، وسب الطفل الذى ضرب السيدة أو هكذا بان الكلام الذى تفوه به الطفل الأشقر، اقترب

عتريس لكى يعتذر فى لباقة للرجل وللسيدة وللطفل، ثم راح يهدئ الطفل الذى مع أمه، وكان طفلا قصيراً أسمر اللون عليه ملابس باهتة وأمه ترتدى ملابس ريفية قديمة أيضاً، وتحمل فى يدها كيس شفاف بدت الأدوية الرخيصة تكاد تمزق الكيس من كثرتها.

نظر الطفل الأسمر إلى عتريس المتسخ الثياب ثم بصق فى وجهه، اشتاط عتريس غضبا وقرر إظهار أهميته، راح ينادى على موظفى المحطة، وعلى أفراد الجند بل ويحاول استمالة بعض الركاب الذين لم ينصرفوا من المحطة ولكن لم يستجب له أحد، ضحك الطفل الأسمر وقال لعتريس:

ـ أهلاً.

ازدادت حلقة الجند حول الرجال والسيدات والأطفال ذوى الشعر الأصفر والملابس الزاهية الألوان، جاء قطار وتوقف، أسرعت السيدة الريفية وهى تجذب طفلها ودخلت إحدى عرباته، وعندما انطلق قطار السيدة الريفية وطفلها. كان الرصيف الأوسط قد خلا من البشر وكذلك الرصيف الأيمن، تلفت الركاب القلائل الذين لم يغادروا المحطة إلى مكان الجند ولكنهم لم يجدوهم أيضاً.

جاءت القطارات ومضت، ظل عتريس يردد أهلا لكل جماعة من الناس، ولكن الرصيف الأوسط ظل خالياً..

«قتلتني وقتلتها»

عندمـا تزوج مـحـروس لم يـكن يعـرف أن زوجـتـه ابنة السفاح الذى قتل خاله وعمه ونزع الأرض التى كان يزرعها ابوه لم يـكن يعـرف، وتمنى ان يظل فى جـهلـه فـقـد زادت هذه المعـرفة من هـمه وغـمه ودفـعـته إلى أن يتـخلص منهـا بـالقـتل، على الرغم من أنهـا راحت تتوسل إليـه وتقسم أنهـا هى أيضـا لم تكن تعرف، لم يحـدثها أحـد بأمر أبيـها الذى هاجـر إلى بلد بـعـيـد منذ أن كـانت طفلة لاتـعى، قـالوا لهـا عندما راحت تسأل عنه أنه سافر من أجل لقمة العيش وأنه حتمـا سيعود، ولم يعـد، ولم تعد هى تهتم بعودتـه أو غيابه، وشـقت طريقـهـا فى المدينـة من خـادمـة فـى مطبخ عـزيز أفندى إلى مشغل السيدة نوسة الخيـاطة إلى مصنع بلاط النجمـة الذهبيـة حيث قـابلت مـحـروس الذى كـان يشـرف على بوفيـه المصنع ويعمل ليـلا فى مصنع للأحـذية، أخذها من يدهـا ونظر إلى وجـهـهـا وقـال لهـا فى صـرامـة وهو متجهم الوجـه أنه سيتزوجها، لم تفرح ولم تعلن موافـقتها واعتبرت ذلك من تصـاريف القدر، بعد أسبوع كـانت تسكن فى غـرفتـه الوحـيدة على سطح الـعـمـارة التى بهـا مـصنع الأحـذية، تعـودت بعد ذلك أن تسهـر مع فى ذلك المصنع وهى تعـد له الطعام والشـاى وتشـاهده وهو يدق المسـامـيـر الرفـيـعـة فى قوالب الأحذية الخشبـيـة، وأحـيـاناً تنام وهى جالسة حتى يأخذها من يدها ويذهبان إلى غرفة السطوح، وبعـد وقت قليل يأخـذها مـعـه إلى مـصـنع البـلاط، كـانت تتحرك فى سكينة وأحـيانا تبـتسـم فى بلاهة، لم يكن يعلم

مـايدور فى ذهنهـا، اعـتقـد أنه أسـعـدها بزواجـه منهـا، تلك الفتاة اليتيمية غير معـروفة الأصل، لم يكن يهمه أسـرتها، كان يسعده عـدم وجود من يحاسبه عليهـا، ولم يسألها ذات يوم عمَّا فيها أو قصتها، كان متأكدا فقط من طهارتها فقد راقبـها منذ أن جاءت إلى مـصنع البلاط، ولم يتحدث عنها أحـد بشـر، وعندمـا أوقـفـهـا أمـام المأذون كـان مـتـأكـدا من فـرحـتـهـا الغـامـرة فـهـو رجل جـمـيل الصـورة، ودخله وفـيـر وتظهـرعليه عـلامات الغنى، وكل فـتـيـات المصانع التى عـمل بهـا كـانوا يـتـغـامـزون عليـه حـتى أن إحـداهـن فـاتحـتـه فى الزواج ولكنه فـتح الخطاب الوحـيـد الذى جـاء إلى زوجـتـه بعد زواج دام سنوات فوجد اعترافا بحكاية والدها مع أهله، نفس القصـة التى سمـعها من أمـه وأولاد خاله وأولاد عـمه، كيف قتل أبوها خاله بطلقة بندقية عند صلاة الظهر وقتل عـمـه بعد سـاعـة بسكين واغـتـصب أرض أبيـه وأسـوته عنوة ومـات أبـوه بعـدها كـمـداً وظلت أمـه تحـمـل هم اليـتـامى، الدمـوع التى لاتجف والنظرة الذليلة الحزينة والخطوط السـوداء التـى مـلأت وجـه أمــه وقلة الزاد وشـح المال، ترك المدرسة وراح ينتقل من عمل إلى عمل، كم عانى من الضرب والسب والركل، مـن عـديد من الأسطوات، وأمــه تدعـوه إلى الصبر،.. وهاهـو يرى ذلك الرجل الذى فعل بأسرته جمـيعا هذا الظلـم القبـيـح، يراه فى عـينيـهـا وفى حـديثـهـا وفى وجـهـهـا، هى التى قـتلت خـاله وعـمـه وأمـاتت أبيــه وسلبت الأرض والمال والمستقبل، سـرقـتـه قـبل أن تتـزوجـه وهاهى

تسرق عمره أيضا، جاءت لتكمل مافعله أبوها، ولكن لا..
لن يسمح لها بتدميره، خنقها، صرخت، تأوهت، راحت
تهذى، وتقسم أنها لم تكن تعرف، حتى ولو لم تكن تعرف،
لن يسامحها ولن يتركها تعيش هاهى قد عرفت،...
والخطاب المفتوح المرسل باسمها يعلن الحقيقة.. راحت
عينيها تتوسلان، ظالم مظلوم فهو متألم، الألم يسرى من
جسدها إلى يديه، تقلصت عضلات ذراعيه، وتكورت فى
تنشج أصابعه، استكانت، ونامت فى هدوء.. ارتعد، ماأحس
ببرودة جسدها، أيقن موتها.. صرخ بصوت مشروخ قتلتنى
وقتلتها.

«عين السمكة..

محاولة أولى»

دخلنا الدار فى اندفاعة جماعية، كل منا يحاول أن يسبق الآخرين إلى حضنها وتقبيل يدها، كنت أحس أن لى منزلة خاصة؛ لهذا لم أحاول الاشتراك فى الزحام حولها، وقفت بعيداً حتى انفضوا جميعاً من حولها، كل منهم يتأمل القرش المعدنى فى كفه اليمنى، أشعة الشمس تلمع على جباههم، وعلى طرحتها البيضاء، نظرت نحوى وابتسمت فى ود، ثم قالت:

وأنت ياعيد ألا تحب أن تأخذ تعريفة أنت الآخر؟.

اقتربت منها أعرف أنها تعلم مدى حرصى على رضاها، لم أكن فى حاجة إلى «القرش التعريفة» بقدر حاجتى إلى حضنها الدافىء، وسماع صوتها، وأنت ياعفريت.. لماذا لم تسابقهم إلى ياعكروت؟ «ضمتنى إلى صدرها».. أنا أحبك فركت أذنى اليمنى، صرخت فى ألم مفتعل؛ تركت أذنى، وأخذت تدلك صدرى بيدها فى حنان محبب إلى نفسى أجلستنى على ركبتها وراحت تهزنى برقة وقالت:

لاتطلب منى أن أحكى لك حكاية مثل كل يوم، سوف أحضر لك حفانا من البلح الذى تحبه،.. جدك كان يحب أكل البلح فى كل وقت «شردت وهى تهمس» ذات يوم بعد أن بدأ فى إعداد قهوته السادة، طلب منى طبقا من البلح، قلت لم يعد عندنا، نفد مالدينا منه، سكت ولم يعلق بكلمته المضادة كنت أتمنى أن يلح فى طلبه، قبل كل مرة كنت أتمادى فى إنكار وجود البلح، وفى النهاية أعطيه قليلا

منه، كما كان يحدث ولكنه هذه المرة لم يكرر طلبه فظل صامتاً سمعت صوت الكنكة وهى تفور بالقهوة، وبدأت رغاوى البن تتقافز نحو السطح، مددت يدى بفنجان البيشة الصغير بعد أن مسحته بأصابعى، أخذه منى وبدأ فى صب القهوة.

ياجدتى سمعت هذه الحكاية أكثر من مرة. واصلت ماكانت تحكيه:

لم يتكلم ولم يطلب منى شيئاً لم يقل ماذا قال الحكماء عن البلح.

ياجدتى فى كل مرة تحضرين الحبات التى بقيت من خزين البلح، «ردت فى أسى»:

- لم أحضر البلح، انتظرت أن يكرر طلبه، أن يهددنى فى غضب أو يداعبنى فى ود أفتقده فى هذه المرة ظل صامتا، شعرت بأننى يجب أن أصر على عدم وجود بلح، وأنه نفد بالفعل، حاولت أن أقول هذا ولكنى لم أستطع ولزمت الصمت، ناولنى فنجان القهوة السادة، فكرت أن أتدلل بالرفض وأن أمتنع عن أخذ القهوة لينطلق اللسان بالسؤال، ومع هذا أخذت الفنجان ولاحظت أن يده ترتعش حتى كادت القهوة أن تندلق، أسرعت بأخذ الفنجان، كنت أود أن أرتمى على يده وأقبلها فى امتنان وحب ودعاء بطول العمر، ولكنى لم أفعل واكتفيت برفع الفنجان إلى فمى، كانت مرارة البن تلسع لسانى واشداقى.

ولماذا لم تفعلى ياجدتى؟.

ـ ياليتنى قبلتها ياولدى، المرة الوحيدة التى لم أفعلها، وكأننى تخشبت فى مكانى ولم أتحرك، حتى القهوة لم أكف عن ابتلاعها فى غيظ مقيت، راح هو يرشف قهوته فى صبر وهدوء، يتأمل النار التى بدأت تخبو ويعلوها الرماد الأبيض، والكنكة السوداء مغروزة فى بقايا رماد النار، تأملتها ورأيتنى مثلها، حزينة صامتة، منذ أن تزوجت وهى تجلس هكذا فى مكانها المعتاد فى موقد النار التى يشعلها بعد صلاة العصر ويتركها حتى تهدأ وتتحول إلى رماد والكنكة تغلى ثم يبدأ فى صب فناجين القهوة البيشة، فى كل يوم يحكى، يضحك يقص مغامرات شبابه، يتباهى بفتوته، معارك مع لصوص حاولوا سرقة الدار أو البهائم، معارك مع قطاع الطريق خلال ذهابه وعودته من الأسواق عراك من أجل الأسرة والأولاد والكرامة وأيضاً معارك من أجل إثبات الوجود.. ياسلام كيف يقولون ماقالوه؟!.. وأنا أسمع وأنصت ولاأتكلم، أكتفى بالابتسام.

ياجدتى وهكذا حالك، منذ أن رأيتك.

«أخيراً ضحكت بصوت مكتوم، ثم شعرت أن ضحكتها ماكان يجب أن تخرج من حنكها، راحت تزم شفتيها بقسوة، خشيت أن تكف عن الكلام، قلت مداعباً:

ـ يقول حسين ابن عمى أنك تتخلين أشياء لم تحدث قط، أنزلتنى من فوق ركبتها، وقالت فى غضب حقيقى:

أنت وحسين مثل أهلكم لاتملكون إلا لسانا فقط، أذهب عنى ولن تحصل على قرشك اليوم، أذهب، أنتابنى هم شديد وحيرة أشد هل أغادرها كما تطلب أم أحاول استرداد رضاها، وأخيرا قلت:

ولكن أمى تقول أنك مثل بنات الحور لا تشيبين أبدا، ابتسمت فى مرارة، تجاعيد وجهها تفتحت قليلا، قالت:

- زمان كان العقل خالى، والقلب يضحك قبل الوجه، وعدتنى بالحلوى إن سمعت الكلام، طبلوا وزمروا ورقص الرجال، وحجلت النساء، امتلأت الدار بالمرق واللحم والثريد، زميلاتى فى الحارة كن يدرن حولى فى مرح يدغدغن جسدى بصوابعهن، قالت أمى يجب أن أطيع وأن سيد لم يعد ابن عمك فقط، وهو الآن رجلك له حق السمع والطاعة أومأت برأسى وتمنيت الذهاب للنوم... قلت صائحا ومقاطعا...

تنامين ليلة زفافك.

قرصتنى جدتى وقالت:

وهل تعرف أنت ليلة الزفاف؟ جيل عفاريت ولم يعد سكوتها يقلقنى، شعرت أنها بحاجة إلى الحكى، أخذت أتمسح بركبتها علها تجلسنى، طال سكوتها، نظرت إلى وجهها كانت شفتاها مزموتان، ومالت رأسها إلى أسفل وعلا شخيرها، هممت أن أبتعد ولكنها أمسكت بى، وقالت:

- وماذا تعرف ياولدى عن ليلة الزفاف؟

ولم أجب، لم أكن أعرف بالفعل، ولكنى سمعت تلك العبارة يتناقلها الأولاد فى الحارة وأحياناً نقيم فرحاً ونسمى عزيزة عروساً، ونسمى عبدالله عريساً، ويجلسان جنباً إلى جنب، ولم أكن أكمل اللعبة كانت أمى تنادينى، قالت جدتى: كان جدك رجلا كريماً، يهش لكل من يقابله، لايتكلم كثيراً إذا أراد أن يفعل شيئاً فعله دون حديث، يسرع إلى سرادق العزاء وإلى مجالس الأفراح يقبل فى شغف على حلقات الذكر، يردد كلما تقلب فى نومه إن الله حى لايموت.. ولم أكن أقترب منه إلا بعد صلاة العصر يجلس على سطح الدار وأمامه النار التى يشعلها فى الموقد الفخارى، يدس الكنكة ويبدأ فى عمل القهوة ساعتها ينادينى فأجلس بجواره ويحكى لى ماذا فعل اليوم وأحيانا يسألنى هل مافعله كان صوابا؟ أوافقه وأدعو له، أغلب كلماتى دعاء فى قلبى، كلمات لاأقدر على نطقها..

قاطعتها فى مكر:

- وماهى ياجدتى؟

عادت تلدغنى قالت:

- كان يسمع كلماتى دون أن أقولها، وساعتها يبتسم ويقدم لى فنجان من القهوة السادة ثم يسألنى عن حبات البلح، يعلم أن أهلنا يحضرون لنا من الجبل كل موسم أجدله البلح وأنا أحفظها بحيث لاتتلف، وفى كل يوم أقدم

له طبقاً من البلح يومها لم أفعل سألنى أجبته أنه لم يعد لدينا بلحاً لم يكرر السؤال أحنى رأسه إلى أسفل وزم شفتيه، كنت أود أن يسألنى ثانية وهو يعلم أنه لدينا كثير من البلح ويعلم أننى أحاول أن أداعبه ولكنه هذه المرة أمسك بالصمت بعد برهة وأنا أحاول أن أتغلب على كبريائى واعترف له بكذبتى وأقدم له كما تعود بعض حبات البلح قام، وهذه ليست عادته، أسرع إلى جلبابه الصوفى المركون فى أول المندرة وارتداه ولم يلتفت نحوى وخرج من الدار، أحسست أننى فقدته جاء الأحفاد ولكنى لم أفرح بهم مثل كل مرة كنت امرأة أخرى غير الأولى انكمشت جالسة والأحفاد يناوشوننى كى أداعبهم مثل كل مرة ولكنى لم أفلح مع نفسى كى أعدد لهم كما كنت.. بعدها لم أعد كما كنت، وبعدها أصبحت كما ترانى.. عجوزا ساخطة.

لاياجدتى ليس كما تقولين، أنا أحبك ياجدتى، وجدى كان رحمه الله يحبك كثيرا وكنا نلاحظ هذا الحب ونتحدث عنه إلى يوم مات رحمه الله.

«نوء المشمش»

عندما أكلت حبات المشمش، شعرت بالحموضة تلسع فمها، ومع هذا نظرت إلى الطبق، كانت الرسومات الملونة للورد البلدى على حوافه، أما قلب الطبق فخال وبياضه ناصع، تلحظت ونظرت إلى عزت، كانت تتمنى أن يأتى لها بالمزيد، ولكنه عندما سألها وهو ينظر إلى وجهها فى تمعن، هل يحضر لها المزيد؟ أجابت فى تسرع بالنفى، بعدها رفع الطبق من أمامها، وانشغل فى إشعال سيجارة، نظرت هى إليه وطعم المشمش فى فمها، تذكرت ما سبق وأن قررته.. لقد وعدت أمها أن تقول له كل شىء، ولن تتراجع، تشبث هو بالسيجارة واختفى خلف الدخان، تظاهر بالقوة، يجب أن يعاملها على أساس أنها مجرد ضيفة، ليس لها حقوق لديه، كما أن أمه قد ناقشت معه الأمر وانتهيا معا إلى أن الأمر يجب أن يعالج فى صراحة، وأن يقول لها كل شىء، كانت تتلمظ ولسانها يمسح شفتيها، حاولت أن تشغل فكرها فى أمر ما حتى تتأهب لحديث، لاحظت أن الهواء يعبث بالستارة الحرير فى عنف، الستارة تكاد تنخلع من مكانها، النافذة بحرية والهواء يتدافع خلالها، ومع هذا تشعر بالحر، فكرت فى أن تغلق النافذة ولكنها تذكرت ما ينطوى عليه هذا الفعل من خطورة، سوف يفكر عزت فى هذا الفعل ويفسره لمصلحته، وسوف تخسر بذلك الموقف كله فى الجولة الأولى، يجب أن تدع أمر الستارة الحريرية يجب أن تتظاهر بأن لا شىء يعنيها، إنها مجرد مقابلة لإنهاء الموضوع، الستارة

الحريرية تكاد تتمزق، يجب أن تفكر فى شىء أخر غير هذه الستارة... سوف تتمزق، اشترتها بكل بدل السفر عندما كانا فى دمشق، لم تشتر شيئاً آخر، حرمت نفسها من كثير من المتع، لكى تتمكن من شراء هذه الستارة، وعندما عادت وفردتها أمام إخوتها شعرت بنيران الحسد تلفح وجهها، للمت الستارة واستغرقت فى تجميلها شهراً، كانت تعود من المكتب لكى تجلس الليل كله من أجل أن تصنع لها الحلقات والفرنشات.

الستارة فى مهب الريح، لا لن تسمح لهذه الستارة أن تضعف موقفها ويجب أن تقول له كل شىء وتسرع بالانصراف، نظرت إليه كانت السيجارة على وشك أن تحرق يده كانت فى نهايتها، «الآن يجب أن أتكلم» ونظرت إليه ثانية، كانت عيناه تتحسس الستارة الحريرية وقد فقدت إحدى الحلقات المعدنية، والهواء يهب فيها، لو أنه وجد هذه الحلقة الناقصة لاستطاع أن يثبت الستارة جيداً، فلايحركها الهواء بهذه القسوة، ثم أن الفرنشة تمزقت من الجهة اليمنى، لو أنه قام الآن ورفع الستارة، فإنها سوف تلاحظ الحلقة الناقصة وسوف تلاحظ تمزق الفرنشة، وربما فسرت فعله تفسيراً آخر، ربما سخرت منه؛ لأنه لم يستطع أن يحافظ على الستارة الحريرية، وأنه بدونها لايستطيع أن يفعل شيئا، تذكر الملابس الملقاة على الأرض وتذكر «الحلة» التى تركها فى الحمام ونسيها وإناء الشاى الملقى فى أول الطرقة، لو أنها قامت أو ألقت نظرة لرأت كل

شىء، وساعتها لن يستطيع أن يقول ما اتفق عليه مع أمه؛ سوف يخسر القضية من الوهلة الأولى، يجب أن يغلق النافذة، حتى لايظهر التمزق فى الستارة ربما لاتراه الآن، ولكنها حتماً ستراه بعد قليل، وإغلاق النافذة مع فتح الستارة.. هو الحل، ولكن أليس إغلاق النافذة والجو بهذه الحرارة يوحى إليها بأمر ما؟ سوف تغضب بالفعل، بل ربما فكرت فى أشياء لم يفكر هو فيها مطلقاً لا لن يغلق النافذة، سوف يقول لها كل شىء بصراحة وبسرعة وبوضوح؛ حتى ينتهيا، نظر إليها رمى ماتبقى من السيجارة فى عصبية واستعد أن ينطق، نظر إليها وجد الفزع مرتسما على وجهها، ارتبك عقله يعمل بسرعة، نظر إلى الأرض وجد طرف السيجارة يتوهج وهو يأكل شعيرات الصوف التى تغطى وجه السجارة، انتفض وخطف «عقب» السيجارة بيده، لسعه، تحمل، استدار، عقله يعمل سريعا، لا يجد المتفضدة، وجدها، سحق عقب السيجارة فى عنف، شعر بالتهاب فى أصبعه، ظهر الألم واضحاً على وجهه، لعق أصبعة فى محاولة لتخفيف الألم، ارتخى على المقعد مهدوداً.

نظر إلى الأرض، لم تترك السيجارة أثرا واضحاً على السجادة، استراح، شعر أنه يريد أن ينام أو يبكى، أو حتى يشكو من ألم إصبعه، أو أنها تسأله عن إصبعه، كان يحلو له أن يتشاكى، أن يتألم من شىء ما، حتى ولو كانت شكوى لا أساس لها من الصحة، إنما كان همه أن يشكو إليها،

فتقترب هى منه وتضع يدها على موضع الشكوى ثم ترنو إليه فى حَنان وتقبله، وتمنيه بالشفاء العاجل وسرعان ما ينسى الألم حتى ولو كان حقيقياً ويقبلها بقليل من العنف، جرى فى ذعر، يجرى خلفها، تتهرب منه، يمسك بها، يضمها إلى صدره ويقبلها، يضربها فى رقة. تذكره بمرضه، بألمه، يضحك، تضحك، يرتميان وهما يضحكان، ولكن الآن إصبعه يؤلمه بشدة ولايستطيع أن يتكلم، أن يشكو، يجب أن يسرع ويقول لها، نظر إليها، وجدها، واجمة.

كانت تتمنى أن تأخذ إصبعه بين يديها وتدلكه وتضع له قليلا من مسحوق «السلفا»، لابد أن الحرق يؤلمه، إنه لايتحمل الألم، وجلده حساس أليس من الواجب أن أسأله، أن أرى إصبعه و أضع له سائلاً ملطفاً، يجب أن أفعل هذا، إنه على الأقل إنسان، إنه.. كان.. أقصد إنه عزت ولكن لا، سوف يفسر هذا الموقف من جانبى تفسيراً. آخر يضعف موقفها، يجب أن تتعلم من تجاربها السابقة أن الرحمة ضعف، وأن الضعف غير مقبول فى هذا العصر، أمها تقول: إنها ضيعت حقوقها كلها بسبب ضعفها، وقفت... سوف تقول له كل شىء ثم، تنصرف بسرعة، وقف هو فى قلق، يجب أن تتظاهر بالقوة، وأن تتماسك لابد أن جزعها على حرق إصبعه ظهر على وجهها، ويجب أن تفكر فى كلام أمها، استدارت ونظرت تجاه النافذة أصبح هو خلفها لن ترى وجهه، ولن يرى إنفعالها، خطت نحو النافذة

استجمعت كل قرتها، أخذت نفسا عميقا، نظرت إلى طرف الستارة الحريرية، يالكارثة إنه ممزق، ثم إن الحلق المعدنية، وهى من النحاس الخالص غير موجودة، اهتز كيانها كله، استدارت وهى متنمرة فى قسوة، تراجع هو إلى الخلف، راح يهزى كالمحموم.

..كان متعباً وقام دون أن يغلق النافذة فى الصباح وجد الحلقة النحاسية مفقودة، بحث عنها فى كل مكان، دار يسأل عن مثيلها فى كل المحلات، سأل الأصدقاء، وعدوه أن يشتروا له مثلها خلال سفرياتهم، أما الفرنشة فلم يلاحظ تمزقها إلا الآن، يجب أن تصدقه إنه لايكذب، يقسم، يتوسل، سوف يشترى لها ستارة أخرى، سوف يسافر بنفسه للبحث عن الحلقة النحاسية، بحيث لاتغضب إلى هذا الحد، إنه يعلم اعتزازها بهذه الستارة، يرجوها..

كانت قد نسيت كل شىء، تذكرت فقط أنه مهمل، أنه سر تعاستها، إنه دائما سر الفوضى فى طول حياتها، إنه طفل لا يريد أن يكبر أبداً، عندما حملت منه، بكى، قال إنه لا يريد. وعندما أخبرها الطبيب بأن الانفصال قد أفسد الحمل، بكى وقال إنه لايهدأ ولن يستريح إلا إذا جاءت له بالطفل، هو دائماً هكذا، إذا فعلت غضب وإذا لم تفعل غضب، وإذا دخل الحمام سمعته يشكو، وإذا نام سمعته يشكو، وإذا أكل اشتكى وإذا لم يأكل اشتكى، إذا غضب عليه رئيسه ظل نكداً أياما وليالى طويلة وإذا تصالح مع رئيسه

اشـتكى لأنه لاتقـدر رئيـسـة إذا ذهب إلى مكان أفـسـده واشتكى أيضاً إنه سبب كل مايحدث لها من كوارث، عندما تزوجته غضب عليها الأهل والأقارب وخسرت بزواجه زواجا أفضل، وعندما عاشت معه، حرمها من السفر ومن العمل الإضافى، بل جعلها تنسى كل الأصدقاء، إنها لاتذكر له حسنة واحدة، هذا الطفل الأشيب، ملابس مهملة، أسبوع واحد جعل المنزل الذى أفنت عمرها فى تأسيسه مثلاً للفوضى.

لابد أن تبعده عن حياتها وأن تنساه، إنه الشىء الفاسد الوحيد فى حياتها، يجب أن تصيح فى وجهه بهذه الحقيقة، تقدمت نحوه تكاد تسحقه، كان لا يزال يتراجع، لايريدها أن ترى بقية المنزل، إنه يعلم مدى حرصها على البيت، ولكن ماذا يفعل وهو لم يعش فى بيت منظم من قبل، كان يأكل على فراشه ويذاكر عليه، مسامير الحائط هى دولاب ملابسه، وأرض الغرفة هى مخزن التموين ومكان وضع الأحذية والكتب ودوسيهات الشغل، لو أنها فهمت فقط إنه يحبها، يريدها، وسوف يحاول أن يتعلم، لماذا لاتعلمه؟ لماذا ترفض تعليمه، نظر فى عينيها، وجدهما متحجرتان، ووجها جامد كصخرة، وشعرها مهوش ومنكوش، وجسدها يبدو نحيلا ومقدسا إلى الأمام، لمح شعرات صفراء على يديها، وشعرة سوداء كشجرة سنط نابتة فى أعلى جبهتها، كان فمها مزموما، وقفت وقد طفح كره لا يدرى من أين جاءه فجأة، صرخ، تراجعت فى خوف

أحالها الرعب إلى عجوز، صرخ فى قسوة، كان حرمانه من إبداء رأيه يضر به، عذبته ابتسامته الدائمة وتظاهره بالرضا، وطهق من إحساسه بأن كل الناس أفضل منه، لماذا لايكون هو نفسه ذات مرة؟ لماذا يشكو لكى يعطى للآخرين فرصة إشعارهم بالتفوق؟ إنه يتعمد الشكوى لكى يعطيهم هذا الإحساس، الإحساس بأنهم أفضل منه، لماذا؟ صرخت فى وجهه، مد يده نحوها، تراجعت فى ذعر حيث لمست الرحمة قلبه، تلفت حوله، وجه طبق المشمش الفارغ. حطمه فى عنف، تفتت الوردة، استدار وتلقف الفازة، صرخت فى جذع، رأى جزعها على الفازة، أسعده مارآه، حطم الفازة فى شراسة، استكانت هى بجوار الحائط، وبدأت دموعها تتسرب فى حرص ثم راحت تنسكب فى انهيار، فشعرت بالضعف، شعرت أنها فى حاجة إلى الأمان، أحاطت بها دنياها فارغة يعوى الهواء البارد حولها، انكمشت على نفسها، أسنانها تصطك، ألم حاد فى رأسها يكاد يقسمها إلى نصفين، ارتعاش الحمى يخذلها، لاتريد الآن أكثر من النوم، لو أنه هدأ قليلاً، ولكنه لايزال يحطم كل شىء، فنظر إلى الستارة الحريرية، اندفع نحوها، رأته وهو يجمعها فى قبضتيه، اندفعت نحوه، دفعته بعيداً، تشبث هو بالستارة، صرخت فى رعب تشنجت يده على الستارة، قضمت يده فى قسوة، انبثق الدم من يده، بصقت الدم من فمها، ركلته، صرخ، صرخت، جذب هو الستارة بكل قوته، دفعت يده بعيدا بكل ما استطاعت، تمزقت الستارة،

زلزل الصوت كيانها، وعندما تماسكت كانت الستارة الحريرية بين يديها ممزقة، وهى قابعة على الأرض بجوار الجدار، نظرت إلى الستارة الممزقة، وواصلت البكاء فى حرقة، بينما الهواء يعصف بالصالة وباب البيت مفتوح على مصراعيه، وكل شىء صار محطماً.

«كان»

أشعر وكأن الدنيا تضيق بى وأضيق بها، أتنفس هواءً ساخناً يخرج من فمى، أعجب كيف يسير الناس فى شوارع مدينتى، تنتابنى الدهشة عند سماع ضحكات بعض الشبان، تحاصرنى لعنات المسنات القابعات خلف الأبواب، أتحسس طريقى إلى الأمام ولكن أقدامى تخذلنى وأتراجع إلى الخلف، أتألم لأنك ربما تشاركنى شعورى، أتمنى أن تضحك وتقول عنى أنى مت.. وحتما سأموت.. فأنت صادق،.. لم أفهم كلمات الرجل الطيب الذى أعطانا مفتاح الغرفة، رأيتك وأنت تبادله الابتسام، كانت المرأة المتشحة بالسواد تبكى ، رأيت أن أواسيها ولكن الزحام انزلق نحونا وأخذنى تياره نحو الشمال، وهناك وجدت مفتاح الغرفة فى يدى، توقفت وأردت أن أركز تفكيرى فى أمر واحد، ولم يكن هذا الأمر الواحد موجودا، فى عقلى، كانت عجلة الطحن تدور فى رأسى، والإحساس بأهمية ماأنا فيه يداهمنى، ولم أستطع تبين الأمور الهامة التى تشغلنى، أردت أن أتحرك أن أفعل شيئا، أن أثور وأرفع راية العصيان ولكنى نسيت على من أرفع تلك الراية، تلفت حولى رأيت العربة تندفع نحو عجوز يسير بجوار الحائط.

انشغل عقلى بتراب الحائط الذى سوف يتساقط عندما تصطدم السيارة المسرعة بالجدار، رأيت دخاناً مرتفعاً وسحابات، ورأيت رمادا يسقط على الأرض ويتمدد مرتاحاً.. لم أسمع أصوات عربات الإسعاف ولا صفارات الشرطة، جذبنى رجل من كتفى حتى نقلت من جوارى

سيارة إنقاذ، قال رجل آخر: إن العالم لم يكن كما كان، فكرت فى العبارة التى قالها وقلت ماذا كان العالم فى الماضى، ماذا كان ولماذا لم يعد كما كان، أسعدنى أن تحدث كلمة كان جرساً موسيقياً شجياً يرن فى رأسى، أحببتها، كان.. كانت التى يعرفها الناس وكان التى أعرفها أنا وحدى، كان الجميلة الرشيقة التى يلوك سيرتها كل البشر قديمهم وحديثهم، وكان ذات الجاذبية التى علمتنى الحب،... كانت فى أتم صور جمالها بعد أن خلعت ثوب جمالها الأول، قلت لها أحبك فى جميع صورك، قالت فى دلال: هكذا أنت يرضيك من الجمال أبسطه، قلت: العاشق هو من نظر إلى صورة نفسه، قالت: بل العاشق من أخذ نفسه بالحكمة، قلت ضاحكا: والحكمة هى حب الجمال، تركتنى ومضت، قلت فى نفسى يجب أن أحدد أوليات التفكير، وأن أكون عادلاً وحكيماً أيضاً، مرت عصفورة فوق رأسى، قلت يجب أن أتعلم الطيران، فى البداية أفكر فى الطيران، عبور المسافات الأرضية وتخطى الحواجز الحجرية والأسمنتية بسهولة، والوصول إلى الأهداف بيسر وسرعة رأيت السحب السوداء تحجب الرؤية، وغمرنى الملل فلا شىء هناك، يتكرر زحف السحابات السوداء، وماتكاد واحدة منها يبرق من داخلها الضوء حتى يتلاشى، لا تلون ولا اختلاف، صديقى قال إنهم هناك لا يختلفون ويقولون قولاً واحداً، ويحلمون حلما واحدا يتكرر. قلت: فهل أنتم سعداء؟ قال: لم نعد نسأل، إننا نعيش لكى نحقق الأحلام،

قلت: وهل تحقق الحلم أو شيئا منه؟ انصرف مسرعاً، وقال: فات أوان السؤال ولم يعد هناك فائدة من الإجابة،... وجدت مفتاح الغرفة فى كفى، هرولت مسرعا ولكنى وجدتك واقفا تتحدث مع الرجل الطيب، لم تسألنى أين كنت ولم تعجب من غيابى، أردت أن أحدثك عن حيرتى ولكنى لاحظت أنك مشغول بالحديث مع الطيب... لماذا لا أستطيع السيطرة على عقلى؟ لماذا يشت منى وتتداخل الأزمنة فى رأسى، وأشعر بثقل المسئولية، وينخلع الكتف من حمل أثقال أوزارى، وكتبى، وملابسى، أرى الحجرة المظلمة التى أعيش فيها، وأرى الفندق، وردهات القصور، وحدائق ذات جنات، ومصابيح مضاءة، وزرع ونخيل، وطائرات وعربات فارهة، وموسيقى تثقل سمعى، وأضيق.. أشعر بالاختناق، وأراك لا تزال واقفاً تتحدث إلى الرجل، هل ضاع الزمن، أما ضاق الصدر واختنق الفؤاد، وزالت المسافات؟ وأين الإجابات التى كانت حاضرة جاهزة سريعة الطلقات؟... كان أحببتها، عشقتها، ولكن لا أحد يعرف من تحبه كان،... كان ستعود، لكى نتلو معاً صحفنا التى خططناها سوياً، ونقرأ القصائد والأشعار، وأحاديث الخال والعمة والأجداد، ستعود، وأعرف كيف سألقاها، وأين يكون اللقاء؟ وساعتها سأعطيك مفتاح الغرفة حتى تنام وتستريح.. أما أنا فغدا ألقاك، بعد أن أرى عشقى وحبى... كان.

«جناية قتل عقل»

كانت الظلمة جاثمة على عينىَّ كالجسد المتمدد، أحس بها فوق أرنبة أنفى، ترتعش رموشى فتضربها برودة الجو تبرق فى حدقة العين ومضات مثل الشهب، ينتابنى الإحساس بأن كائنات هلامية تسير حولى ومن تحتى، يتملكنى الخوف ويدفعنى برعونته كى أمضى فى طريقى، أغمض العينين أحياناً كسلاً أو استسلاماً لمصير مجهول، تأخذنى الأحلام بعيداً وأرانى وقد تمددت على فراش ذهبى له مساند من حرير، وبخار يتصاعد من إبريق أبيض، يطير الفراش، أشعر بلسعة الهواء البارد، تضطرم قدمى بنتوء فى الأرض ينقلب الفراش وأهوى هابطاً، تتداخل الأحلام، والجسد المظلم المتهدر يتكوم حول رأسى، ويغطى يدى، ولا أرى يدى التى أحاول أن أرفعها، أحاول ألا أتنفس، يراودنى شبح لاأعرف كيف أفاديه يأتى عن شمالى ثم يدور حولى ويتوقف أمامى، أتردد هل أتابع السير أم أتوقف؟ كنت قد وقعت ورقة الانفصال عن زوجتى، ورأيت أن أمضى بعيداً، تركت لها أولادى وفراشى وكتبى ومكتبى وتلك الأشياء الصغيرة التى اشتريتها طوال حياتى، قطعة من بلور كنت أضعها على أوراقى، سكين ذهبية أهداها لى أستاذ فاضل عندما كنت ضيفاً فى بلاده، زجاجة فارغة أضع فيها أقلامى، خنجر سودانى اشتريته بجوار مسجد المهدى وأيضا محبرة قديمة تركية الصنع، وأشياء صغيرة دقيقة تركتها، كنت قد جمعتها، والساعة الرقمية التى تنطق بكل لغات العالم وتصيح كل أذان، ومسبحة

كهرمانية، وسجادة صلاة، ومصباح صغير أزرق أنيره كلما جلست لأكتب، ومجموعة من الأدوية، منذ سنوات وأنا أبتلع الأقراص، خرجت ليلاً، ومضيت فى الطريق استسلمت لمصيرى كما أستسلم للظلام الآن، لا أشكو ولكنى أتألم، أنا من اخترت الطريق، وأنا الذى يجب أن يمضى فيه حتى النهاية، لم يعد للتراجع فائدة، جاءت النهاية التى لم أكن أتوقعها لهذا مضيت حتى لو كان الموت سقوطاً فى بئر هو النهاية، تراجعت أحلامى، وتبددت أمالى التى كنت أعمل جاهدا لتحقيقها، لم يعد الأمر كما كان، والظلام هو الواقع، والوقوف ضد الظلام مضيعة للوقت ولكن يجب مسايرته..

شعرت بالإرهاق، ورغبت فى النوم، ولكن لاأدرى هل أتوقف أم أتابع السير؟ وإذا وقفت أين أقف؟ وضاعت الاتجاهات من رأسى، لم أعد أعرف هل انا أسير إلى الأمام أم إلى الخلف؟ لم أعد أشعر بساقى، رغبت فى الصراخ، لم أجد الشجاعة، وغرقت فى بحر النوم..

عجلات السيارات تئن بجوار رأسى، سوداء متربة، بعضها يصدر فحيحاً مثل الأفاعى، والبعض الآخر يعوى.. سمعت أذان الصلاة، ابتسمت وقلت لابنتى جوارنا مسجد، ابتسمت وذهبت عنى، تطاير ورق الشجر الجاف، علق بذقنى وشعر رأسى، رائحة التراب المبلول بالماء عطنه، حاولت أن أقف، السيارات تصرخ وتصدر أصواتا مختلطة، رزاز الطين

العطن يغطى وجهى ويسد أنفى شرت بالسعادة وأنا أتخيل وجـهى وقـد لوثتـه عجـائن الـطين أحـسست بـردا يندس مـخـتـرقـاً جـلدى، تسـاقطت قطـرات المطر، فـتـحت فـمى أتذوقـهـا، بـاردة ولكنهـا ملحـة، مـرة أخـرى حـاولت أن أقف ولكنى فشلت، أحـسست بالراحة وأنا أتمدد فى كسل بعد أن قررت عـدم المحاولة للوقوف، أصـوات عالية ومـختلطة تأتى من أعلى، الأسنان بارزة، والحلوق مـفتـوحة، وصـراخ، ونساء يضحكن فى نشوة ورجال يتندرون، قلت فى نفسى.

«لا تنظر إلى القمر»

القمـر يرنو إلى الأرض، يحـاول أن يلمـسـهـا، أعـواد الحطب الجاف ترقد فى استسلام يغطيها ضوء القمر فى حنان، الهواء يمر خلف أذنى وأنا راقد على ظهرى، أنظر إلى القمر، أدخل إليه، أسبح مع أشعته، تجذبنى إليه، أقاوم، هل الأشعة تأتى منه أم تذهب إليه؟ أقاوم، تجذبنى فى عنف، أدخل إلى الساحة البيضاء، أشعر بالرهبة، أترنح ولكنى أتمالك بعد قليل، أتقدم ماشياً، أرى عرائس القمر تتمايل فى نشوة، أشعر بألم أسفل رأسى، أسمع صوتاً،.. تقدم ياحبيب القمر، أتردد! هل أدخل؟ تدور حولى عروسة جميلة، ذهبية الشعر، يتموج شعرها مع حركة رأسها، يدور عقلى.. ياحبيب القمر، لن تفلت منى هذه المرة، أكاد ألمسك.. ياسبحان الله، ياخالق، ياعالم، يامصور أرفعنى نحوك، شد من أزرى، أكاد أن أكون..

ـ سوف يصيبك الجنون.

لا، لن أفقد عقلى بعد قلبى.

ـ لقد أصابك فعلاً.

عقلى صاف، بريق القمر يدخل إلى عقلى، أنا دخلت إلى القمر، ودخل القمر فى قلبى، تداخلنا، الكل يتماسك،..

ـ لقد نهيتك مراراً.. قم.

شعرت بوخزة فى جنبى، وجه القمر مظلم، أشعر بألم الوخـزة، وهبـوط القلب، دوار الرأس يلفنى بألمى، يدى

لاتطيع عقلى، لسانى أمسكه الشلل، أرى النار تقترب منى، أرى بعض الأشــيــاء أرى أمى، انقــذينى ياأمى، الـصــوت لايخرج من فمى، أشعر بالاختناق، القمر محاق، بعد الحب فراق، أصرخ، يقابلنى الصمت، أمدد إلى رحمتك، لاتدعنى أغرق فى خوفى، هل هذا هو الموت؟ ولكن الحياة من حولى، هل هو جـسـدى المـدود إننى أراه، لقـد صـرت جـزئين: أحدهما أراه فى صورة جسد آدمى، بلا حـراك فوق أعـواد القش، نعم إننى أرى أعـواد القش، ولكن كـيف أرى، من أنا؟ ليس لى عــين أرى بهــا، إننى أحس وأرى فى وقت واحــد، أستطيع أن أطيـر أيضـا هكذا أطيـر، أرى نهـر الـنيل ممتـدا هذه ساقية عم مغاورى، وتلك دار ابن عمى، ومبنى المسجد، ثم هاهو شـريط السكة الحـديد، القطار يمـر، يعـوى، أطيـر أكثـر، لاأسـمع الأصوات، لم أعد أرى الجسد الممدد، لقد أصبحت حرا فى الهواء، انحرف شمالاً أرى حدائق واسعة شاسعة، الأشجار كثيفة، غابات أفريقيا، النمور السوداء، وحيوانات الـغـابة، أهبط قليلا، أعـرف هذه الأرض، ليست غريبة عنى، وكأننى عشت بها من قبل هذا الكوخ أعـرفـه، البـاب يحـدث صـوتـاً عندمـا أدفعـه إلى الداخـل، والظلام كثيف بالداخل، ولكن عندما أرفع غطاء النافذة يتـدفق النور، هذا الثعبان دائماً يرقد تحت النافذة، سوف أقتله أو يقتلنى فى أحد الأيام ينظر إلى عينى، يترنح، أعـرف أنك سوف تقتلنى فى أحد الأيام، انسحب طائرا فى خفة، ينزاح الخوف البـارد، أطير، أرتفع، أرى السحاب يمـر، سوداء داكنة

وأخرى بيضاء مرحة مسرعة نحو الشمال، أتجنب السحب السوداء، أرى برج لندن، أحط أحملق فى المبانى الكالحة اللون، أهبط نحو الشارع، أسير على قدمى، بجوارى تسير فتاتى حمراء الأذن، هكذا أطلق عليها، نتوجه إلى محلات مستر مونى، يتقدم إلينا فى حب، أشعر بالدوار قليلا، أفقد القدرة على تحديد ما حدث، أسير وحيداً فى الشارع، أعرف هذا الشارع، أعرف هذا البيت، لا تزال هناك عجوز شرسة تتقدم نحوى، تهجم ممسكة فمى، عداء واضح، لا أستطيع الطيران روحى مخفوفة لم أعد أطيق، أنقذنى يارب العرش، لم أعد أحتمل، الآلام حادة فى جسدى لا استطيع الفكاك من الألم، تهاجمنى العجوز تهاجمنى الحية، واللون الأسود يكتم أنفاسى، أين أنا؟ أنقذنى يارحمن، أنا أحبك، أنا عبدك، أنا مؤمن بقدرتك، ليس لى إلا أنت ياإلهى ياقوى، ياغفار يارحيم ياواحد، أتشبث بإيمانى إن كان هذا العذاب من عندك فسوف أتحمل، لن أغفر لنفسى هواها يارب، أصرخ فى قوة، لا أسمع صراخى، ولكنى أعود لأرى جسدى مرة أخرى، أتقدم نحوه، أدخل فيه، يزداد إحساسى بالاختناق، أجاهد بعد أن أصبحت متحداً، أتذكر كل كلمات الله التى أعرفها أتلوها، أرى أمى تحنو إلى تمد يدها نحو وجهى لو أنها هزتنى بعنف، حركى رأسى ياأمى فى رأسى يكمن الخلاص من الألم، أرى فى وجهك الأسى وعينيك يلهمها الألم والدمع، فقط ادفعينى إلى الجهة الأخرى، أريد أن يصل إليها مافى رأسى

وتدخل أفكارى إلى عـقلهـا، هل يـمكن تواصـل الفكر بـين الإنسان والإنسان الآخر؟ لو نجحت فى أن أتواصل مع عقل أمى، لفـهـمت مـا أريد وأنقذت حـياتى بدلاً من هذا الحـزن الذى لا يفـيـد. وضـعـت يديهـا حـول رأسى، أشـعـر بـبـرودة يدها، يارب أنت القـادر على كل شىء، تتردد أمى، تهـز رأسى فى قوة، أتخطى حاجـز اللاإرادة، أتمالك نفسى، أرفع رأسى إلى الأمام، تنطلق الصرخة المكتـومة وأنا أعتدل فى رقدتى، تدفعنى أمى إلى صدرها، أشعر بالأمـان والإعياء وأنفـاسى تتلاحق تضمنى أمى بقوة إلى صدرها،..

- ألم أقل لك لاتنظر إلى القمر؟!

«عندما يصبح الحلم أملا»

تتجمع الأحلام، تمتزج، تتماوج، تفور، ثم تتبخر ويصبح الأمل أن تعود الأحلام، مجرد عودتها هو الأمل ولكن كيف تعود الأحلام؟ الفعل لا يهدأ والجسد منهوك القوى، وآلاف من الرؤى تحوم، تزوم، تأكل كل ما يحيط بالبصر والبصيرة، وكأن سدا أسوداً قد أحاط بالفعل يمنع عنه ضياء الحلم، ومن الماضى تأتى الصور مشوهة شرسة، تزيد من جهد الألم، وتدفع إلى النفس الحزينة أوهام «لو أن» لو أن طبيبى فى مصر إتقى الله فلم يطمع فى المزيد من الثراء والغنى، ولكن أين هو الآن؟، ولو أن هذا الطبيب الإنجليزى قال: لاأعرف، ولكن ما العمل وها قد حدث وسقطت كل الأقنعة واختفت كل الأحلام؟ لم تعد حروف الكلمات حب بل لم تعد للكلمات معنى، بل لم تعد للكلمات وجود، صارت مثلى ضباب مشبوه، بماذا تفيد الكلمات بعد أن كانت هى كل الحياة؟ الآن الحياة ذاتها مهددة بالفقد والضياع والاسم والرسم والبسمة والحب، وآلاف من الأمانى على وشك التبخر وتتلفت حولك فلا تجد أحداً، إنهم هناك بعيداً يثرثرون يتضاحكون، يتسلون، يتصورون أنهم إلى المجد ساعون، وما يعلمون، إنه لا مجد ولا يحزنون، وخاصة فى هذا العصر المطحون،.. وأبحث عن رفيق وأركب حصان «الكابوس»، الحلم الرؤى... يأخذنى إلى أغوار النفس الشريرة، أصرخ فى الفراغ، فلا صوت يخرج وإن خرج فلا يسمع، والسيف البتار يضوى تحت الشمس يدافع عن المنبوذين والضعفاء، ولكن السيف يرتد إلى

الصدر، ويشق القلب، يصرخ الرأس فزعاً، تعود دوامات الحلم الرؤى إلى الفوران، تفزع الأمانى والأحلام الوردية تغوص خناجر الألم فى خلايا الجسد ونسمع من بعيد صوت الحياة يزمجر مندفعاً يريد اختراق حاجز الخوف، تمرق على البعد لحظات السعادة، نتلقفها عسى أن نستعيدها ولكنها تختفى قبل أن تمسك بها خلايا التعقل. وتعود العتمة ويطرق باب الألم كلمة «إكسفورد».. أول قصه أطلقت عليها لا أعرف من كتبها ولكنى أذكر عنوانها «فول مدمس فى إكسفورد» وبقيت كلمة «إكسفورد» محفورة فى الذاكرة مرتبطة بالعلم الأدب والسعى إلى المعرفة، ولكن الكلمة الجميلة بمدلولها البراق المبهر اصطدمت بحائط الحزن والكآبة وبأمواج الألم المتدافعة، فتحولت الأحلام إلى دوامات المستحيل، وأسمع عن الأدب، من الذى فاز بجائزة نوبل؟ أحلم بالفوز بها أحلم! أين هذا الحلم من واقع شديد المرارة دفع بالأحلام إلى دائرة اليأس، فتصرخ طلباً للأمل مجرد الأمل فى حلم، وأحلامنا منذ طفولتنا هباء، ولكن يظل الأمل موجوداً.. الأمل فى مجرد عودة الأحلام، يكفى الأمل مجرد الأمل هو الحياة.

قصة تجريبية

«عفوا سيدتي»

كانت السماء زرقاء، والشمس مشرقة، وليلى تجلس فى الشرفة وقد تخففت من ملابسها وتمددت فى جلسة مسترخية تحت أشعة الشمس، فى يدها اليمنى مجلة مصورة، وفى اليسرى كوب من عصير الليمون، وأمامها خضرة زاهية تناثرت خلالها وردات حمراء وصفراء، لا يزال الندى يبلل أوراقها، وعلى البعد كانت ترى حبيب العمر أسمر الجبهة رشيق القوام يداعب حصانه «عنتر» ومن خلفه كلبه الأليف «تيجر»، وعندما أرسلت بصرها تستطلع ماخلفه، رأت العم مغاورى يتجه نحو حبيب القلب حاملاً رزمة النقود جاء بها من البنك، وليلى تعرف أن النقود من أجلها وأن العم مغاورى ماذهب إلى البنك إلا تلبية لأمر زوجها حبيب القلب لكى يحضر لها ما شاءت من النقود، وهل لا تدرى كم من المال طلبت ولا لأى غرض طلبت هذه النقود، إنما هى انسياقا وراء طلب النقود، انسياقا لاتدرى سببه، أكان لتحقيق هوى فى نفسها أم شراء شىء لاتدريه؟ فإن كل شىء متاح أمامها، لا ترهق نفسها فى طلبه إلا بمقدار أن تنطق هذا الطلب، فإذا بما طلبته أمامها فى الحال، ميسراً لها وتحت أمرها، ولديها من الخدم والحشم مايجعلها لاتتحرك ساكنا، حتى حمامها له من يدبره وملبسها لها من يضعه على جسدها، بل إن النوم فى الفراش لا تتكبده فإذا هى أرادت وجدت ما أرادت حتى النوم.

تقدم العم مغاورى وأظهر مامعه من المال، فأشار له

سيده إلى حيث تجلس ليلى، فإذا به يسرع نحوها بمجرد إشارة سيده.

وها هو المال فى يد العم مغاورى رزماً من ورق جديد، فى انتظار إشارتها وظلت ليلى ساهمة، لا تدرى كم استغرقت من الوقت، أما فى حساب العم مغاورى فقد استغرق دهراً من الزمان ظل فى انتظار الأمر الذى سوف تصدره ليلى هانم، وهى أيضا لحظة لا تكاد فى نظر العم مغاورى وهو يرمق هذا الجمال المتجسد أمامه، وهذا الدهر فى حساب ليلى هانم لم يكن شيئا، فنهاراها وليلها يدوران وفقا لهواها، فإن أرادت للأمر أن يتوقف فهى ما أرادت وإن هى أرادت للزمن أن يسرع فهى وما أرادت أيضاً، استراح ذهنها إلى خاطر كان بعقلها وما أن استقر هذا الخاطر حتى وقفت و[illegible] العم مغاورى و[illegible] مامعه من مال، وأسرعت نحو حجرتها وهذا الخاطر قد شغلها عما حولها، والخدم تجرى خلفها، أسرعت، وضعت فوق جسدها ما يعاونها على تحقيق مافى خاطرها، وما هى إلا لحظات ووجدت ليلى نفسها، تقود سيارتها الحمراء نحو المدينة، ماذا تفعل فى المدينة؟ لاتدرى كل ماراودها أن تذهب إلى المدينة ومعها المال، ليس فى بالها شيئا محدداً، والسيارة تنهب الطريق، دخلت شوارع المدينة، طافت بها، إنها تلك الشوارع، وتلك الحوانيت، طالما مشت إليها... وهناك فى ركن الشارع حيث تتقاطر عربات الركاب القادمة من الأقاليم، كانت تقبع سيدة مسنة رأتها عشرات المرات، بل

توسلات السيدة بأن تمنحها شيئا من نقود، إلا أنها فى كل مرة كانت تشيح برأسها وتحاول فى كل مرة أن تتناسى صوربها، وأن تمحوها من ذهنها، ولكن تظل السيدة قابعة داخل رأسها لا تريد أن تنصرف، فى هذه مرة اندفعت ليلى إلى السيدة، وضعت أمامها كل النقود التى كانت معها، أوراقا جديدة، تطايرت وملأت ماحول السيدة، تجمع المارة، كفت السيدة عن الاستجداء، جلست صامتة وبلا حراك.. أما ليلى فقد خلعت الرداء الذى كانت تكتسى به، ووضعته حول السيدة، ثم مالت نحوها وفجأة سقطت ليلى بجوار السيدة.. وقد فارقت الحياة.

«فلوس العجمي»

• قال بصوت عال متباهياً:

«لو وضعت فلوسى فوق بعضها وصعدت عليها لوضعت يدى على القمر».

كنت صغيرا لا أكاد أعى هذا القول، ومع هذا تبادر إلى ذهنى صورة عم العجمى وهو يضع يده على القمر صاعداً على تل من الفلوس؛ لهذا ضحكت بصوت مرتفع بعد أن طاف بخيالى انهيار تل الفلوس تحت ثقل جسد العجمى ثم سقوطه على الأرض، لطمنى أبى على خدى ونهرنى كى أتأدب، كان الرجل غاضباً، كيف يدعى عليه تاجر البذور أنه لم يدفع له كل حقه؟ تجمهر تجار السوق، اندفع أبى وسط التجار، جريت خلفه ثم وقفت بجواره، كان العجمى فى ثورته يصف، أمواله بأنها ما نعته أبداً من الفلس، وأنها تسد عليه الفقر كيف يأتيه الفقر وهو قد حصن نفسه وجمع ماله وعدده، واحتاط لأولاده من غول الزمن؟! رحت أتابع ثورة العجمى وأنا أكاد أصيح بدورى مؤكدا مايقوله كيف خرج نحن كل سبت من «الكتاب» جرياً فى اتجاه السوق حتى إذا وصلنا إلى المكان الذى كان العجمى يعرض فيه تجارته نبشنا الأرض نبشاً خفيفاً، وفى كل حركة نجد قرشاً، كانت القروش الصغيرة تتساقط من يد العجمى، وبصره الكليل لايسمح له بالتقاطها كما أن زحام البيع

يعزفه عنها، فإذا ما انتهى من بيع بضاعته، انصرف ومعه عماله يحملون الأجولة الفارغة والمكاييل والموازين وقد هدهم مجاهدة البيع لفلاحين يدعون العبط، ونأتى نحن أطفال القرية لكى نرصد القروش الصغيرة التى تساقطت من العجمى، وكل سبت نفعل هذا، وكل سبت يزداد يقيننا بأنه يمتلك من الفلوس ما لا يمكن عده ولاحصره، وأمسكت بقرش صاغ عليه صورة الملك.

ولكن زميلى محمود الجناينى وضع يده هو الآخر وأقسم بأغلظ الإيمان بأنه قد رآه قبلى، وحاولت إثبات حقى فى القرش ولكن الجناينى كان أقوى وجذب القرش الصاغ بقوة وهو يصيح:

- لن تصدق أمى أن هذا قرش صاغ.. إنها لم تره فى حياتها من قبل، ضحكت، كنت سريع الضحك حتى أنهم كانوا يسخرون منى لذلك ودفعت ثمن ضحكاتى، فقد تمكن بقية الأولاد من الاستيلاء على ماجمعت من قروش، اندفعنا جرياً عندما جاءت عربة المجلس القروى لكى تكنس الشارع وترشه بالماء، بعدها نجلس على حجر أبيض فى أول حارة الشعراوى نفحص ما جمعناه ويحدثنا هريدى عن حكايات ثراء العجمى وكيف لايعد الفلوس بل لا يحصيها كثيرا، فهو لا يعرف العد إنما يملأ الصفائح بالفلوس، كما أن لديه أكياس ثقيلة ملأى بالفلوس الورقية.. وقال هريدى همساً: إن ابن عمته زينب يقسم بأن

العجمى يمتلك مائة ورقة عليها صورة المأذنة ومائة غيرها من الورقة الخضراء. هذا ماهو معلوم أما ماهو غير معلوم فلا أحد يعرفه؛ لأن العجمى يضع فلوسه أكواماً فوق أكوام فى القاعة الداخلية، وأنه يحتفظ بمفتاح تلك القاعة مربوطاً على وسطة بحيث يتدلى فى فخذيه، فلماذا لاأصدق مايقول العجمى؟ قال أبى وهو يسحب العجمى معه:

ـ لاأحد يكذبك ياسيدنا فلا داعى لمثل هذه الأقوال.

وقال خالى:

ـ لاأحد يحسد المال إلا أصحابه.. فاقتصد فى قولك، كان العجمى قد هدأ وبدأ يبحث عن نظارته الطبية فى جيوبه فسقطت منه بضعة قروش، أردت أن أنحنى لألتقطها ولكن أبى دفعنى بعيداً كأنه أحس بما أنوى فعله، وجمع القروش وأعطاها للعجمى وهو يقول:

ـ على كل حال لقد طيبت أنا خاطر الرجل ودفعت له تعويضا، هدأ العجمى، وقدم له أحد عمال أبى فنجانا من القهوة.

«وتجمع تجار القرية وراحوا يترضون العجمى حتى يرضى، وصالح خصمه وأعطاه وزاده فى العطاء، ثم انصرف العجمى إلى بيته.

قلت لأمى وأنا جالس على الغداء مع أبى:

ـ العجمى يستطيع أن يضع فلوسه فوق بعضها ويصعد عليها ويطول القمر.

شهقت أمى فى فزع.

ـ أعوذ بالله لا تقل هذا يا ولد.

نظرت إلى أمى وقد شعرت بالمهانة، ورحت أكرر ما قاله العجمى:

ـ هو الذى قال، العجمى يصعد على فلوسه ويطول القمر. لطمتنى أمى بقسوة وهى تردد:

ـ استغفر ربك ولا تقل هذا مطلقاً.

تركت الطعام وابتعدت وأنا أغالب دموعى، وقلت قال إنه سد عين الفقر، زامت أمى ونظرت نحو أبى الذى يأكل فى تمهل ولا يعير الأمر اهتماماً، شجعنى هذا على أن أقول فى جرأة:

ـ العجمى يقول لو ركب الفقر حصاناً وجرى خلفى ما أمسك بى، لم تتحمل أمى، واندفعت خلفى لكى تضربنى، ولكنى صعدت بسرعة السلم الخشبى وجريت بمحاذاة السور الجنوبى لدارنا وتسلقط الحائط ولم تستطع أن تمسك بى ولكنى سمعتها تقول لأبى.

ـ ألا تقل لولدك أن هذا حديث الشيطان؟!

سمعت أبى يقول:

- قولى هذا للعجمى نفسه.

وجاء السبت، وجريت إلى السوق، ونبشنا التراب ولكننا لم نجد شيئا، قالوا:

- لم يأت السوق على غير عادته.

تفرقنا فى تخازل، ذهبت إلى، دارنا وسألت عمتى عن العجمى، كان يسكن فى دار قريبة من دارنا وذهبنا معاً، كان مريضاً يرقد فى استكانة وسط الدار، كان ضعيفاً يرتعش لم يشعر بنا ونحن نقترب، قدمت إليه كوز الماء.. شرب قال فى ضعف:

- من؟.

قلت لعمتى:

- أين أولاده وبناته؟

دفعتنى عمتى إلى خارج الدار، همست فى أذنى بعد أن اقتربنا من بيتنا.

- لاتخبر أحداً أننا ذهبنا إليه.

ارتجف جسدى رعبا، لا أدرى لماذا شعرت بالخوف، الخوف من الموت.

وفى الصباح قالوا:

- مات العجمى.

«الخروج من الدائرة»

تدحرجت صخرة صغيرة من فوق التل ثم سقطت فى الماء، ظهرت عدة دوائر ثم تلاشت بسرعة، وعاد سطح الماء ساكنا، قذف الطفل العصفور الواقف على الشجرة، طار العصفور فى فزع، تأوهت الفتاة فى افتعال، نظر إليها الفتى فى تأثر مبالغ فيه، هبت نسخة رقيقة آتية من ناحية النيل، اقترب صبى يبيع الفل ووقف فى لزوجة بجوار الفتى والفتى يتمتم ببعض الدعوات، ظل واقفاً لايرغب فى الحركة كانت عيناه تتابع العصفور الذى راح يحوم حول الشجرة، وضع الفتى يده فى جيبه وأخرج قطعة من النقود وأعطاها للصبى، لم يتحرك الصبى بائع الفل وظل يرقب العصفور.

● برعى وزوجته

زم عم برعى شفتيه وكتم غيظه، صاحت امرأته بصوت غليظ:

- شرابة خرج.

تحرك عم برعى فى برود ظاهرى، وتأرجحت رأسه عدة مرات، اقتربت منه ابنته الصغيرة وابتسمت فى وجهه، ابتسم لها ومضى، خرج من الدار، سقطت على رأسه ورقة شجر جافة، لسعته حافة الورقة حينما انزلقت على قفاه، نزعها فى قرف وقذفها بغضب، اندفع بعض الصبية نحوه وهم يتشاجرون، اصطدموا به، نهرهم فى عصبية ثم تابع

سيره حتى وصل إلى محطة الأوتوبيس، ظل واقفاً وعقله شارد،... كان يفكر فى ابنته التى لم تعد حتى الآن.

● الأستاذ عزت والمرآة.

تململ الأستاذ عزت فى مقعده، نظر إلى الساعة المعلقة على الحائط، ثم نظر إلى المرآة التى تقسم الحجرة إلى نصفين، لاحظ أن الشيب يغطى معظم رأسه، تأفف، دق الجرس، دخلت هدى، دارت حول المكتب ثم وقفت ثم سكون، انتظرت أن يتكلم، ظل صامتاً، كان يفكر فى طريقة لصبغ الشعر، اكتشف فجأة أنه ينظر إلى صدر هدى، كان نهداها يهتزان مع حركة تنفسها، تذكر أنه لم يتزوج، دق على الأوراق فى عصبية، تنهد فى حسرة، سمع دقات الساعة، رفع رأسه وقال:

- أين برعى؟

خرجت هدى مسرعة للبحث عن برعى!.

● الفتى والفتاة

قالت:

- وبعد؟

قال:

- نتزوج.

نظرت الفتاة إلى الأرض، كانت مجموعة من النمل تشكل طابوراً يحمل ورقة شجر، كان النمل يسير فى نشاط وكانت ورقة الشجر تتحرك، رفعت رأسها وقالت:

- وكيف؟.

قال:

- مثل الناس، أذهب إلى والدك، أخبره عن حبى، أحدثه عن..

سكت الفتى، نظر إلى النيل، ماء النيل مائل إلى الصفرة، تنعكس عليه ظلال العمارات، بعض أضواء النيون تلمع فوق سطح الماء، تقسيم أراض، تعالى إلى حيث الفلتر، تبرق الأضواء ثم تنطفأ، تنطفأ ثم تبرق.. زوروا مدريد، والقمر الوليد، والنفس وماتريد، ومأأنت ثاقب ولايقاطع للوريد، يا نفسى كفى، ويا عين كفكفى،.. قال:

- ياحية العين، سأقول له.. وقفت الفتاة، نظرت إلى حيث جلس الفتى، رمقته بعين الحب، هب الفتى مد يده ولمس يدها، تعانقت الأيدى، فرت الفتاة هاربة، ووقف الفتى طائرا ينظر فى شرود إلى لمعان النيون على سطح ماء النيل..

● برعى وخياله

... لو أن الأمر بيدى لفعلت، ولكنى أعمل قدر الطاقة،

من المحكمة إلى البيت، ومن البيت إلى المكتب، ومن المكتب إلى البيت، ومن البيت إلى المحكمة والحكم بعد المداولة، أنت القاضى والمتهم، وأنت الحكم، والبنت يلزمها البيت المستور، والأيامَ تدور، لم يعد الأمر كما كان بالأمس، قدر نحاس وصندوق و«ابور» البنت يلزمها كنز مسحور لاينفد، ألم تتخرج فى الجامعة وتفوز بالشهادة والوظيفة والمركز الوقور؟ البنت يلزمها عريس لديه مال موفور، ولكن...

● الدائرة

اكتشفت هدى أن برعى لم يحضر، هذه هى المرة الأولى التى تغيب فيها برعى وهذه هى المرة الأولى التى تلاحظ فيها هدى غياب برعى، إنها تجده عندما تحضر إلى المكتب، عندما تنصرف تتركه فى المكتب سنوات لا تدرى كم عددها، وهى ترى برعى موجودا بالمكتب، لم تفكر يوماً فى أمره، متى يحضر؟ متى ينصرف؟ لم تفكر فى الأمر، وهدى تعرف كل شىء، تعرف كل ورقة، وتعرف ما تحتويه الأوراق، بل تعرف كل شىء عن المكتب وعن عزت تقصد الأستاذ عزت صاحب المكتب، متى يأتى متى ينصرف، ماذا يشرب؟ ماذا يأكل؟ فيما يفكر؟ رصيده فى البنك، ديونه، مستحقاته عن العملاء أقلامه، دفتر الشيكات، كل شىء، هدى تعرف كل شىء ولا يفوتها شىء، برعى جزء من المكتب، تعطيه مرتبه، تسأله عن بناته، التى فى الجامعة، تقصد التى تخرجت، والتى فى المدرسة، تقصد اللائى فى

المدرسة، تسأله عن أم البنات، تعطيه فى الأعياد، تسأله عن آلام الكبد، تنصحه بزيادة نظافة مكتب الأستاذ..... اليوم نستقبل زواراً لهم أهمية خاصة، هدى تعرف كل شىء، والأستاذ عزت يعرف أنها تعرف كل شىء، ولكن اليوم هى لاتعرف أين برعى سوف يسخر منها الأستاذ، ويبتسم فى تهكم،... ودق جرس الأستاذ عزت يستدعيها..

● عزت وهدى

عزت فكر فى الأمر، ثم عاد وفكر فيه ثانية، نظر إلى هدى وسألها عن برعى، قالت:

- لقد تذكرت، ذهب لإحضار الأوراق.. هدى انتابتها الحيرة عندما أخرجت كذبتها دون تدبر، تحركت فى ارتباك وقالت:

- كان يتحدث بالأمس عن ابنته الموظفة وكان...

انطلق عقل عزت يعمل، راح يقص على نفسه قصة الفتاة، برعى يخبره بنجاحها فى المدرسة، برعى يتحدث عن المسرح المدرسى وحصولها على شهادة التفوق، برعى فاجأه بأنها دخلت الجامعة، رآها، مد يده وسلم عليها... قبلى يد الأستاذ يا بنت.. لمع العناد على جبينها، سحب يده قبل أن ترفض الفتاة، أعطاها ورقة مالية، تركتها تسقط على حافة المكتب، نهض برعى والتقطها فى اعتذار، تذكر وبرقت فى ذهنه الفكرة، كانت هدى تتكلم.

عـزت رفـع رأسـه، نظـر إلـى هدى وابتـسم، دخل بـرعى مهرولا صائحا:

- أسف ياأستاذ أصل..

أسكته الأستاذ بيده، وقف، خاف برعى وجفلت هدى، تراجعت وقد خرج الأستاذ من خلف مكتبه نظر إلى برعى، قال:

- عم برعى، هل تزوجت الفتاة؟

ارتبك برعى، نظـر إلى هدى، بادلته هدى نظرة قاسية نظر إلى الأستاذ وجده ينتظر الإجابة فى اهتمام، قال:

- لأ ياأستاذ.

تقدم الأستاذ خطوتين، أصبح قريباً جداً من برعى الذى احـتـار.. هل يتـراجع إلى الوراء أم يـظل فى مكـانه؟. دقت هدى الأرض بكعب الحذاء، قال الأستاذ فى رجاء:

- هل توافق على زواجها منى؟!.

هي كما شاهدتها

قابلتها فى أحد شوارع المدينة، حسناء شابة ترتدى ملابس حديثة من النوع الذى لايستر الكثير من جسدها، بهرتنى بطلعتها المضيئة وشعرها الذهبى وابتسامتها العذبة، كنت خارجاً لتوى من معركة كلامية حول تمثال «بوذا المقدس» الموجود فى «كابول» كان عقلى مشتتا، حسبتها لأول مرة فتاة من أحلامى وإنها ليست حقيقة تمشى على الأرض.

قالت فجأة:

ـ أود الحديث معك.

لم أكن فى حالة تسمح بالأحاديث الإذاعية أو الصحفية.

قلت بسرعة:

ـ أنا متعب ولا أريد الكلام.

قالت:

ـ إذن أنا أتكلم وأنت تسمع.. موافق.

قلت:

ـ عن أى شىء سوف تتحدثين.

قالت وهى تبتسم:

ـ عنك أنت تحديداً.

تغز إلى عقلى سخرية التحدى، فتاة من فتيات هذا الزمن الذى لايهمه إلا الملابس والرقص والغناء والحديث

عن فضايح أهل الفن، قلت:

ـ ولكنك لاتعرفين عنى شيئاً فأنا لأول مرة ألتقى بك.. ثم إن هذا شارع عام.

قالت فى حسم:

ـ ستذهب معى إلى مكان قريب، ثم إننى أعرفك عز المعرفة وسوف ترى.

قلت فى تحدى:

ـ من أنتى حتى تعرفين عنى كل شىء وتريدين الحديث معى؟ هل أرسلتك التى ارهقتنى عامين؟.

قالت مبتسمة:

ـ عندما نجلس سترى كم أنا صادقة... ثم..

وأنا كما شاهدتنى

جلسنا فى مكان منعزل، كان الجو حاراً ولكن المكان ظليل وبه نسمة هواء، حاولت أن أتأملها جيداً، كانت أنثى صارخة الجمال، وعندما تحدثت كانت بسيطة وغير مدربة على الكذب، قالت فى تحفز:

ـ هل أبدأ الكلام؟

قلت بسرعة، ياريت، كنت أود أن أعرف كيف ترانى هى، داخلى صورة خاصة عن ذاتى، فأنا دائما خائف، خائف من

كل شىء، عندما أركب الطائرة أرتعش من الخوف، وكذلك عندما أركب سفينة أو حتى تاكسى داخل المدينة، والويل إن ركبت سيارات السفر السريعة، أخاف من الطعام أو الحديث إلى شخص ما.. حتى لو كان أصغر منى - أخاف النوم وأخاف اليقظة، أعمم أننى غبى لاأجيد التصرف فى كثير من الأحيان، غير مقدام، ولاأحسن التعبير عن نفسى، أعرف أن أصدقائى قبل أعدائى يحاولون استغلال طيبتى على اعتبار أنها غباء، أحيانا أتظاهر بالغباء وأقنع نفسى أننى واد «مفتح»، وأحمد الله أنه فى كثير من الأحوال وينصفنى الله، قلت:

- لما لاتتكلمين؟

قالت وهى تبتسم:

- ألم تسمع ماقلت؟!.

قلت فى استنكار صادق:

- وهل أنا الذى تكلمت أم أنت؟

ضحكت فى سخرية:

- أعلم أنك تتظاهر بالغباء.. ولكنى أحبك.

صعدت الدماء الحارة إلى دماغى، كانت جميلة وصغيرة وكل مافيها كما يقول الشاعر «حلو».. قلت:

- وأنا لاأحبك.

ابتسمت وقالت:

نقول من جديد.. ثم..

أنا كما شاهدونى

لم أملك إلا أن أعلن إعجابى بها، كيف عرفت عنى كل هذا؟! إنها تعرف، خبايا صدرى وما أخفيه عن الناس، احببتها بشدة لدرجة الكراهية، قلت هل يمكن أن يرانى الآخرون كما رأتنى هى أم أن ما رأته هذه الفتاة الجميلة التى كرهتها لدرجة الحب القهرى هى وحدها الذى تراه؟ أنا من الداخل هذا المخرف البخيل الجاحد هذا الطيب إلى درجة العبط قال لى استاذى ذات مرة أننى طيب إلى درجة تجعلنى أبدو جاهلاً، وقال بعض أصحابى أننى ماكر ذكى، عندما تزوجت أول مرة قال أحد رؤسائى فى العمل يالك من ماكر لئيم تزوجت بمن تستطيع أن ترفعك أعلى، وماتت زوجتى بمرض لم أعرف سره، وتزوجت ثانية، حتى إذا أنجبت منها ووضعت لها مالاً فى البنك باسمها حتى طالبتنى بالطلاق واتهمتنى بالخيانة مع الخادمة، زوجتى لم تكن لها أسرة، لا أب ولا أم، وكانت تسير فى الشوارع جوعانة تشكو البرد، وكانت لاتهتم بالأخلاق، واعترفت لى أنها عاشرت رجالاً، لم أهتم، كنت أرجو وجه الله، وبعد أن شبعت وجلست فى بيتى قالت: طلقنى، وخرجت من البيت، وهى الآن تصلى وتصوم والله أعلم، ولاأدرى هل تشعر بما

فعلته مع الرجل الذى أنقذها من هذا الوحل؟ هل فكر وهى تصلى أنها ظلمتنى؟ تركتها وتزوجت ثالثة كانت غير جميلة ومسنة ولكنها طيبة، ثم طالبتنى بالطلاق وتزوجت الرابعة، وأرجو ألا تزهدنى بسرعة، قلت لفتاتى لاأريد الزواج، لأننى لا أحبك، بكت وقالت سوف أتزوجك، طاردتنى، أزعجتنى، قالت عن نفسها كلاما جارحاً قالت:

ـ أحبك ياغبى.. أحبك ياغبى.

ولكننى لاأحبها.. قالوا سوف تعود إليك لأنك فعلا رجل غبى... ثم..

أنا كما رآنى عدوى

صعب جدا أن أحدد أعدائى، فالناس الذين مثلى نصف أغبياء وجهلاء ولايعرفون كيف يتصرفون، فليس لهم أعداء لأنهم لايعرفون كيف يفرقون بين الصديق والعدو لأن كل الناس عندهم «طيبون» وعندما يقعون فى المشاكل ـ فى هذه الحالة ـ يقولون أخيراً عرفنا الأعداء، ومع هذا فلا تمضى بضعة أيام حتى تزول العداوة بكلمة طيبة، ولأنهم نصف أغبياء فإنهم يتسامحون وينسون ولايقولون إلا «الصلح خير» بعدها تختلط الأصدقاء بالأعداء، ولايبقى إلا غباء العقول وبياض القلوب، لهذا فإننى اعترفت بعدم التفرقة بين صديقى وعدوى، وقال أبى رحمه الله، عدوك

اليوم ربما يصير صديقك غدا وصديقك اليوم ربما يصير عدوك غدا والله يرحمك يابا كنت رجلا حكيما ولم أتعلم منك شيئا، ولأن الجميع يمتدحونى بشدة، فأنا رجل كريم، خدوم، مضياف، أقدم لكل الناس خدماتى، وأتحمل بشدة كل الصدمات، وأننى لطيف خفيف عف اللسان، حكيم، وأنا كامل الأوصاف والأخلاق وحسناتى تفوق الجبال والبحار، وأنا ذكى فطن، شاطر جداً، وأنا.. وأنا..

ولاأدرى هل هذا الكلام فعلا أم نفاقا أم كذباً.. ألم أقل لكم أننى نصف غبى؟!

قالت:

- أحبك.

قلت بسرعة:

- أكرهك.

ذكرتنى السيدة التى تعمل معى بأن موعد الجلسة قد حان وأن الملف الخاص بتمثال بوذا جاهز، ودخلت إلى الاجتماع حيث سنقرر موقف تمثال بوذا المقدس وربما تمثال الحرية أيضا..

هؤلاء علموني الحب

مجموعة قصصية

فتحي سلامة

كتب المؤلف

..في مجال الرواية:

. ثمار الشوك	الكتاب الماسى
. الجرار رقم ٣٥	هيئة الكتاب
. العام الأول للميلاد	دار الهلال
. أشياء حقيقية	مطبوعات مجلة الثقافة
. وقتلها الحب	نشرت سلسلة بجريدة المسا
. المزامير	دار التعاون
. ديار الجبل	هيئة الكتاب
. منشية البكري	هيئة الكتاب
. العصر	هيئة الكتاب
. برج الأسد	دار الحياة
. ينابع الحزن والمسرة	
. النيل يجري في دمي «جزءان»	الثقافة الجماهير
. البدايات والنهايات	وكالة القاهرة

ثانيا: مجموعات قصصية

. يسألونك عن الخوف	هيئة الكتاب
. رذاذ الليمون	إدارة الأدب
. الحب كله	أخبار اليوم
. مواطن في مهمة انتحارية	هيئة الكتاب
. عندما ضحكت بيسة	قصور الثقافة

. الرحلة	دار الحياة
. زوجتي لاتريد أن تتزوجني	نار، القصة «مطبوعات»
. هؤلاء علموني الحب	وكالة القاهرة

ثالثا دراسات:

. القيادة عند الرسول الكريم	«دراسة بالفرنسية»
. تطور الفكر الاجتماعي في الرواية العربية	دار الفكر العربى
. الفكر العربي في الرواية المصرية	دار المعارف
. صوت من الجانب الآخر	دار المعارف
. هموم المغترب في دنيا الأدب	دار الحياة
. أدباء أصدقاء	دار الشاعر
. مستقبل المسرح المصري	المجالس القومية
. الجوع/ المشكلة والحل	إصدار مجلة الفيصل
. القراء بعيون المستقبل	هيئة الكتاب. مكتبة الأسرة
. القصة مصدرا للمعرفة	هيئة الكتاب. مكتبة الأسرة
تاريخ وتطور القصة المصرية	المجالس القومية
. سيكولوجية الفرجة	هيئة الكتاب. مكتبة الأسرة
. صالون الحكيم «٣ أجزاء»	هيئة الكتاب. مكتبة الأسرة
. القرن العشرون في واحد	مكتبة الأسرة
. المرأة والتنمية	مكتبة الأسرة
. الخطاب الإبداعي للطف	مكتبة الأسرة
ل التغريب في الحكي	مكتبة الأسرة

رابعا: المسرح «مطبوعات مسلسلة المسرح العربي «من عام ٦٣ إلي ١٩٩٧»

ـ خضرة الشريفة	مجنون عاقل جدا
ـ ما بعد الخوف	ـ عقول للبيع
ـ حفلة طلاق	ـ ممنوع دخول الستات
ـ باحبك باحبك	ـ على ورق الخوخ
ـ يعملوها الكبار	ـ عشرة على باب الوزير
ـ أيام زمان	ـ ناس عقولها مكن
ـ مجرم تحت الأختبار	ـ ألمظ
ـ علي حزب وداد قلبي	ـ شباب آخر زمن

ـ **خامسا**: قدم للتليفزيون ٣٥ عملا دراميا مسلسلا، كما قدم للسينما عدة أفلام.

ـ نشرت قصصه ورواياته ودراساته في معظم الصحف والمجلات العربية.

ـ كما نشرت دراساته العلمية في مجلات العلوم الاجتماعية والنفسية المحكمة في «لندن وجنيف وبرلين وموسكو».

كتب عن المؤلف:

• البطل في روايات فتحي سلامة	محمود قاسم
• قراءة في مسرح فتحي سلامة	عاطف عز الدين
• التطور الاجتماعي من خلال روايات فتحي سلامة	د. إقبال أحمد
• فتحي سلامة كاتبا مسرحيا	ماجدة على
• رواية فتحي سلامة والرواية الروسية «أدب مقارن»	د. محمود الشاذلى
• فتحي سلامة في ميزان النقد «أعداد»	مديحة السيد
• الرمز والمدلول في روايات فتحي سلامة «أعداد»	مديحة السيد د. حسام عقل
• جدل المراثى الضحكة	د. حسام عقل

رقم الإيداع بدار الكتب
٢٠٠٦/١٩٣٦١
الترقيم الدولى I.B.S.N
977-374-223-0

دار الإسلام للطباعة والنشر
٠١٢٢٦١٤٣٦٢ - ٠٥٠/ ٢٢٦٦٢٢٠